BOBST LIBRARY
3 1142 02908 2073

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

New York University
Bobst, Circulation Department
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Web Renewals:
http://library.nyu.edu
Circulation policies
http://library.nyu.edu/about

THIS ITEM IS SUBJECT TO RECALL AT ANY TIME

NOTE NEW DUE DATE WHEN RENEWING BOOKS ONLINE

Taymūr, Muḥammad, محمد تيمور

Mā tarāhu al-'uyūn

1927

مَا تَرَاهُ العُيُون

N. Y. U. LIBRARIES

الطبعة الثانية

الطبعة الثانية مزينة بالصور

١٣٤٥ - ١٩٢٧

المطبعة السلفية - بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة للناشر

تخليداً لذكرى المرحوم شقيقي المحبوب « محمد تيمور » جمعتُ بعد وفاته جميع أعماله الادبية والمسرحية وطبعتها فى ثلاثة أجزاء سميتها « وميض الروح » و « حياتنا التمثيليه » و « المسرح المصرى » . ولم اطبع منها غير خمسمائة نسخة وزّعت معظمها على الاصدقاء وأصحاب الجرائد والمجلات ودور الكتب العامة . وما تبقى نفدت نُسخه من الاسواق فى بضعة أشهر .

ولما كان اعادة طبعها جميعها دفعة واحدة يتطلب مجهوداً كبيراً رأيتُ ان اجزّىء هذا المجهود فأعيد طبعها على عدّة دفعات . وإنى ابدأ اليوم بنشر قطعه القصصية الرائعة « ما تراه العيون » التى أعدها فى مقدمة أعماله الأدبية كما أعدها أيضاً فى مقدمة مؤلفاتنا العصرية .

هذا وقد رأيتُ اتماماً للفائدة ان اصدّر هذه المجموعة بموجز بسيط عن تاريخ حياة الفقيد وبيان مختصر عن مؤلفاته ، مراعياً فى

Near East
PJ
7864
.A52
.M3
c. 2

المرحوم محمد تيمور

ذلك ضيق المقام . إذ ان سفراً صغيراً كهذا لايحتمل اكثر من ذلك . وانى بهذا العمل الصغير أقوم ببعض الواجب المفروض على نحو شقيقى وصديقى واستاذى الراحل ، من ستبقى ذكراه منقوشة فى قلبى . كذلك بنشرى هذه الأقاصيص ، الصغيرة في عددها ، الجليلة فى قيمتها ، أقوم بنصيب من الواجب المفروض على نحو أدبنا المصرى الحديث الذى نجاهد كلنا ، مطالعين ومؤلفين ، فى سبيل رقيه والسير به نحو الكمال . والله يكلل مسعانا بالنجاح .

الجزيرة . ابريل سنة ١٩٢٧

محمود تيمور

موجز

عن

حياة المؤلف

وأعماله

المرحوم محمد تيمور

(١٨٩٢ - ١٩٢١)

ولد المرحوم « محمد تيمور » فى القاهرة عام ١٨٩٢ . وتوفى بها فى شهر فبراير عام ١٩٢١ . أتم علومه الابتدائية والثانوية فى المدارس الأميرية المصرية . ثم قصد الى فرنسا لتعلم القانون . وصرف فيها ثلاثة أعوام . واعلنت الحرب العظمى عام ١٩١٤ عند ما كان فى مصر يمضى اجازة الصيف . فلم يستطع العودة لاتمام دراسته .

كان شغفه كبيراً بالأدب والمسرح منذ الصغر - وهذا يفسر لنا شدة عنايته بهما فيما بعد - فاستطاع أن ينظم الشعر وهو فى سن العاشرة وظهرت له مقالات فى الصحف وهو لم يفارق المدرسة الابتدائية . ولما انتقل الى المدرسة الثانوية ازداد شغفه بالادب والشعر . وكتاباته كلها فى ذلك الحين تمتاز برشاقة العبارة وحسن الاسلوب ، تنبىء بمستقبل زاهر فى عالم الادب . ولكنه اهملها على إثر عودته من أوربا إذ وجدها دون مستواه الفكرى فى ذلك الوقت .

أطوار حياته الثلاثة

أطوار حياته الثلاثة هي : طور المنزل والمدرسة . طور الدراسة في فرنسا . طور العودة إلى مصر .

فالطور الأول يمتاز بظهور ميوله الأدبية التي ورثها عن أبيه . وكيف ساعدت بيئته المنزلية باحتكاكه الدائم مع والده نمو هذه الميول وازدهارها .

والطور الثاني — وهو مايجدر بنا ان نسميه طور الانتقال — يمتاز بثورته الفكرية ، وليدة بيئته الجديدة ، حيث عاش ثلاث سنين في جوها الرائع مغموراً بحرية التفكير واستقلال الرأي والاعتماد على النفس ، محاطاً بكل ماهو جليل ومفيد من نظريات صائبة ومذاهب ناضجة وآراء جديدة . فأخذ ينهل مما حوله موجهاً عنايته لدراسة الادب والمسرح الفرنسي على وجه خاص . فاستفاد من هذه الدراسة فائدة رأينا أثرها واضحاً في مؤلفاته .

والطور الثالث هو طور العمل . وقد بدأه على أثر عودته من فرنسا . فأخذ ينظم مقطوعاته النظمية الوجدانية ويؤلف قصصه وخواطره ومذكراته ويكتب نقده ورواياته . وفي هذا الطور أيضاً دفعه حبه للتمثيل أن مثّل روايتين على المسارح المصرية . الاولى

رواية « عزة بنت الخليفة » للكاتب القدير ابراهيم رمزى. والثانية « العرائس » لبيرولف وترجمة الأستاذ اسماعيل بك وهبى المحامى. وقد قوبلت جميع كتاباته الادبية والمسرحية كما قوبل تمثيله فى الروايتين السالفتين بكل ترحيب وتحبيذ. والحقيقة التى لايمكن أن ينكرها أحد ان الفقيد كان يفتح بعلمه هذا فتحاً جديداً فى الادب المصرى والمسرح المصرى.

وأهم شىء يدعو للاعجاب به والاكبار من شأنه مجهوده المتواصل، المكلل بالنجاح فى سبيل ايجاد آداب مصرية بحتة بألوان محلية، آداب تعبر عن أخلاقنا وعوائدنا وترسم لنا صورة صحيحة عن بيئتنا بما فى هذه البيئة من فضائل ونقائص. وما رواياته المسرحية وقطعه القصصية (ماتراه العيون) إلا برهان ساطع على هذا المجهود الكبير الذى وضع به أول دعامة فى أدبنا المصرى الجديد ومسرحنا المصرى الحديث.

توفى المرحوم محمد تيمور ولم يبلغ الثلاثين بعد. ولكنه ترك من بعده ارثاً صالحاً غنياً بما فيه من آراء ناضجه، وأفكار حيه جريئه، وطرق لم يعهدها ادبنا فى النقد، وأسلوب فكاهى سلس أخاذ يدل على مقدرة فنية اختصت به دون سواه. والذى كان

يمتاز به الفقيد قوة ملاحظته الدقيقة . وهـذا يفسر لنا براعتـه فى تصوير النفوس البشرية ومناظر الحياة على اختلاف أنواعها .

مؤلفاته

واليك بيان مؤلفاته التى ألفها فى مدة لا تتجاوز الستة أعوام ، والتى شهـد له كل من اطلع عليها أنها تحفـة نادرة فى عالم الأدب المصرى الجديد .

الجزء الأول . وهو كتاب وميض الروح . ويحتوى على الكتب الآتيه :

(١) ديوان تيمور . وهو مجموعة منظوماته . (٢) كتاب الوجدان . وهو مجموعة قطعه الأدبية من الشعر المنثور (٣) الادب والاجتماع . وهو مجموعة مقالاته الأدبية والاجتماعية . (٤) ما تراه العيون وهو مجموعة أقاصيصه المصرية . (٥) خواطر . وهى مجموعة خواطره عن الحياة . (٦) مذكرات باريس .

وهذا الجزء مصدر بمقدمة طويلة عن تاريخ حيـاة الفقيد وشرح أعماله بقلم « الناشر » .

الجزء الثانى . وهو كتاب حياتنا التمثيلية . ويحتوى على الكتب الآتية :

(١) تاريخ التمثيل وهو مجموعة مقالات عن تاريخ التمثيل فى

فرنسا ومصر . (٢) التمثيل الفنى واللافنى . (٣) محاكمة مؤلفى الروايات التمثيلية . وفيها محاكمة المرحوم فرح انطون والاستاذ ابراهيم رمزى والاستاذ لطفى جمعه والشاعر الكبير خليل بك مطران . (٤) نقد الممثلين . وقد أتى فيه على نقد للريحانى والمرحوم الشيخ سلامه حجازى وجورج أبيض وعبد الرحمن رشدى وعزيز عيد وروز اليوسف ومنيرة المهدية وميليا ديان وغيرهم . (٥) مقالات عامة عن التمثيل . (٦) القصائد التمثيلية (المنولوجات) . (٧) رواية « الهاوية » وهى كوميدى دراماتيك مصرية أخلاقية ذات ٣ فصول ، مثلتها فرقة ترقية التمثيل العربى لاول مرة بمسرح الحديقة مساء الاربعاء ٦ أبريل سنة ١٩٢١ . أى بعد وفاته .

وهذا الكتاب مصدّر بمقدمة طريفة للاستاذ زكى تليمات تكلم فيها عن الفقيد كعامل ومؤلف للمسرح المصرى .

الجزء الثالث . وهو كتاب المسرح المصرى . ويحتوى على الروايات الآتية :

(١) العصفور فى القفص . وهى كوميدى مصرية أخلاقية ذات أربعة فصول مثلتها فرقة عبد الرحمن رشدى لاول مرة بمسرح برنتانيا مساء الجمعة أول مارس سنة ١٩١٨ . (٢) عبد الستار افندى . وهى كوميدى مصرية أخلاقية ذات أربعة فصول . مثلها

لاول مرة بمسرح دار التمثيل العربى الاستاذ عزيز عيد بفرقة السيدة منيرة المهدية فى ديسمبر سنة ١٩١٨ .

وهذا الجزء مصدّر بمقدمة لصديقنا الاديب الفاضل محمود عزى

فى القطار

فى القطار

صباح ناصع الجبين يجلى عن القلب الحزين ظلماته ويرد للشيخ شبابه. ونسيم عليل ينعش الافئدة ويسرى عن النفس همومها . وفى الحديقة تمايل الاشجار يمنة ويسرة كأنها ترقص لقدوم الصباح . والناس تسير فى الطريق وقد دبت فى نفوسهم حرارة العمل . وأنا مكتئب النفس أنظر من النافذة لجمال الطبيعة وأسائل نفسى عن سر اكتئابها فلا أهتدى لشىء

تناولت ديوان «موسيه» وحاولت القراءة فلم أفلح . فألقيت به على الخوان وجلست على مقعد واستسلمت للتفكير كأنى فريسة بين مخالب الدهر

مكثت حيناً أفكر ثم نهضت واقفاً وتناولت عصاى وغادرت منزلى وسرت وأنا لا أعلم الى أي مكان تقودنى قدماى الى أن وصلت الى محطة باب الحديد وهناك وقفت مفكراً ثم اهتديت للسفر ترويحاً للنفس . وابتعت تذكرة - درجة ثانية - وركبت القطار للضيعة لأقضى فيها نهاري بأكمله

جلست فى إحدى غرف عربات القطار بجوار النافذة ولم يكن

بها أحد سـواى وما لبثت فى مكانى قليلا حتى سمعت صوت بائع الجرائد يطن فى أذنى « وادى النيل . الاهرام المقطم » فابتعت إحداها وهممت بالقراءة واذا بباب الغرفة قد انفتح ودخل شيخ من المعممين

الشيخ المعمم

أسمر اللون طويل القامة نحيف القوام كث اللحية له عينان أفقل أجفانهما الكسل فكأنه لم يستيقظ من نومه بعد .

وجلس الاستاذ غير بعيد عنى وخلع مركوبه الاحمر قبل أن يتربع على المقعد ثم بصق على الارض ثلاثا ماسحا شفتيه بمنديل أحمر يصلح أن يكون غطاء لطفل صغير . ثم أخرج من جيبه مسبحة ذات مائة حبة وحبة وجعل يردد اسم الله والنبي والصحابة والأولياء والصالحين . فحولت نظرى عنه فاذا بى أرى فى الغرفة شابا لا أدرى من أين دخل علينا . ولعل اشتغالى برؤية الاستاذ منعنى أن أرى الشاب ساعة دخوله

نظرتُ الى الفتى وتبادر لذهنى أنه طالب ريفى انتهى من تأدية امتحانه وهو يعود الى ضيعته ليقضى إجازته بين أهله وقومه . نظر الىَّ الشاب كما نظرت اليه ثم أخرج من محفظته رواية من روايات مسامرات الشعب وهمّ بالقراءة بعد أن حوّل نظره عنى وعن الاستاذ . ونظرتُ للساعة راجيا أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر رابع فاذا بأفندى وضاح الطلعة حسن الهندام دخل غرفتنا وهو يتبختر فى مشيته ويردد أنشودة طالما سمعتها من باعة الفجل والترمس . جلس الأفندى وهو يبتسم واضعا رجلا على رجل

الطالب الريفى

بعد أن قرأنا السلام فرددناه رد الغريب على الغريب

وساد السكون فى الغرفة والتلميذ يقرأ روايته والاستاذ يسبح وهو غائب عن الوجود والافندى ينظر لملابسه طوراً وللمسافرين

الافندى المعجب بنفسه

تارة أخرى وأنا أقرأ وادى النيل منتظراً أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر خامس

مكثنا هنيهة لا نتكلم كأننا ننتظر قدوم أحد فانفتح باب الغرفة ودخل شيخ يبلغ الستين أحمر الوجه براق العينين يدل لون بشرته

على أنه شركسيّ الاصل . وكان ممسكا مظلةً أكلَ الدهر عليها وشرب ، أما حافة طربوشه فكانت تصل الى اطراف أذنيه .

الشركسي

وجلس أمامى وهو يتفرس فى وجوه رفقائه المسافرين كأنه يسألهم من أين هم قادمون وإلى أين هم ذاهبون . ثم سمعنا صفير القطار ينبىء الناس بالمسير . وتحرك القطار بعد قليل يقل من فيه الى حيث هم قاصدون .

سافر القطار ونحن جلوس لانتفوه ببنت شفة كأنما على رؤوسنا الطير حتى اقترب من محطة شبرا فاذا بالشركسى يحملق فىّ ثم قال موجهاً كلامه الىّ :

— هل من أخبار جديدة يا أفندى ؟

فقلت له وأنا ممسك الجريدة بيدى :

— ليس فى أخبار اليوم ما يستلفت النظر اللهم الا خبر اهتمام وزارة المعارف بتعميم التعليم ومحاربة الامية

ولم يهلنى الرجل أن أتم كلامى لانه اختطف الجريدة من يدى دون أن يستأذننى وابتدأ بقراءة ما يقع تحت عينيه . ولم يدهشنى ما فعل لأنى أعلم الناس بحدة الشراكسة . وبعد قليل وصل القطار محطة شبرا وصعد منها لغرفتنا أحد عمد القليوبية . وهو رجل ضخم الجثة كبير الشارب أفطس الانف له وجه به آثار الجدرى تظهر عليه مظاهر القوة والجهل . جلس العمدة بجوارى بعد أن قرأ سورة

العمدة

الفاتحة وصلى على النبي ثم سار القطار قاصداً قليوب

مكث الشركسي قليلا يقرأ الجريدة ثم طواها وألقى بها على الارض وهو يحرق الأرم غيظاً وقال :

— يريدون تعميم التعليم ومحاربة الامية حتى يرتقى الفلاّح الى مصاف أسياده ، وقد جهلوا أنهم يجنون جناية كبرى

فالتقطتُ الجريدة من الأرض وقلت :

— وأى جناية ؟

— إنك مازلت شاباً لا تعرف العلاج الناجع لتربية الفلاّح

— وأي علاج تقصد ؟ وهل من علاج انجع من التعليم ؟

فقطب الشركسى حاجبيه وقال بلهجة الغاضب :

— هناك علاج آخر

— وما هو ؟

فصاح بملء فيه صيحة أفاق لها الاستاذ من نومه وقال :

— السوط . إن السوط لا يكلف الحكومة شيئاً أما التعليم فيتطلب أموالا طائلة . ولا تنسى أن الفلاح لا يذعن إلا للضرب لانه اعتاده من المهد الى اللحد

وأردت ان اجيب الشركسى ولكن العمدة حفظه الله كفانى مؤونة الرد فقال للشركسى وهو يبتسم ابتسامة صفراء :

— صدقت يابيه صدقت. ولو كنت تسكن الضياع مثلنا لقلتَ أكثر من ذلك . اننا نعانى مع الفلاّح مانعانى لنكبح جماحه ونمنعه

من ارتكاب الجرائم

فنظر اليه الشركسى نظرة ارتياب وقال :

— حضرتكم تسكنون الارياف ؟

— أنا مولود بها يابيه

— ما شاء الله

جرى هذا الحديث والاستاذ يغط فى نومه والافندى ذو الهندام الحسن ينظر لملابسه ثم ينظر لنا ويضحك. أما التلميذ فكانت تظهر على وجهه سيما الاشمئزاز . ولقد همّ بالكلام مراراً فلم يمنعه إلا حياؤه وصغر سنه . ولم أطق سكوتاً على ما فاه به الشركسى فقلت له :

— إن الفلاح يا بيه انسان مثلنا وحرام ان لا يحسن الانسان معاملة اخيه الانسان

فالتفت الىَّ العمدة كأنى وجهت اليه الكلام وقال :

— أنا أعلم الناس بالفلاح . ولى الشرف أنى أكون عمدة فى بلد به ألف رجل . .وإن شئت أن تقف على شئون الفلاح أجيبك . إن الفلاح ياحضرة الأفندى لا يفلح معه الا الضرب ولقد صدق البك فيما قال .

وأشار بيده الى الشركسى . فقال الشركسى وهو يبتسم

ابتسامة الساخر :

— ولا ينبؤك مثل خبير

فاستشاط التلميذ غضباً ولم يطق السكوت فقال وهو يرتجف :

— الفلاح ياحضرة العمدة ...

فقاطعه العمدة قائلا :

— قل « يا سعادة البك » لأنى حزت الرتبة الثانية منذ عشرين سنة

فقال التلميذ :

— الفلاح يا حضرة العمدة لا يذعن لاوامركم إلا بالضرب لانكم لم تعودوه غير ذلك . فلو كنتم أحسنتم صنيعكم معه لكنتم وجدتم فيه أخا يتكاتف معكم ويعاونكم . ولكنكم مع الأسف أسأتم اليه فعمد الى الاضرار بكم تخلصاً من اساءتكم . وانه ليدهشنى أن تكون فلاحاً وتنحى باللائمة على إخوانك الفلاحين

فهز العمدة رأسه ونظر للشركسى وقال :

— هذه هى نتائج التعليم

فقال الشركسى :

— نام وقام فوجد نفسه قائم مقام

أما الافندى ذو الهندام الحسن فانه قهقه ضاحكا وصفق بيديه وقال للتلميذ :

— برافو يا أفندى . برافو . برافو

فنظر اليه الشركسى وقد انتفخت أوداجه وتعسر عليه التنفس وقال :

— ومن تكون أنت

— ابن الحظ والانس يا أنس

وضحك عدة ضحكات متواليات

فلم يبق فى قوس الشركسى منزع فصاح وهو يبصق على الارض تارة وعلى جبة الاستاذ وعلى حذاء العمدة طوراً :

— أدبسيس . بس فلاح

ثم سكت وسكت الحاضرون . وأوشكت أن تهدأ العاصفة لولا أن التفت العمدة للاستاذ وقال :

— أنت خير الحاكمين ياسيدنا فاحكم لنا فى هذه القضية .

فهز الاستاذ رأسه وتنحنح وبصق على الارض وقال :

— وما هى القضية لأحكم فيها باذن الله جل وعلا ؟

— هل التعليم أفيد للفلاح أم الضرب ؟

فقال الاستاذ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . انا فتحنا لك فتحاً مبينا . قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لا تعلموا أولاد السفلة العلم »

وعاد الاستاذ الى خموله وأطبق أجفانه مستسلماً للذهول .

فضحك التلميذ وهو يقول :

— حرام عليك يا استاذ . ان بين الأغنياء والفقراء من هو على خلق عظيم كما أن بينهم من هو فى الدرك الاسفل

فأفاق الاستاذ من غشيته وقال :

— واحسرتاه . انكم من يوم ما تعلمتم الرطان فسدت عليكم أخلاقكم ونسيتم أوامر دينكم . ومنكم من تبجح وبغى واستكبر وأنكر وجود الخالق

فصاح الشركسى والعمدة :

— لك الله يا استاذ

وقال الشركسى :

— كان الولد يخاف ان يأكل مع أبيه واليوم يشتمه ويهم بصفعه .

وقال العمدة :

— وكان الولد لا يرى وجه عمته والآن يجالس امرأة أخيه .

ووقف القطار فى قليوب فقرأتُ الجميع السلام وغادرتهم وسرت في طريقى الى الضيعة وأنا أكاد لا أسمع دوى القطار وصفيره وهو يعدو بين المروج الخضراء لكثرة ما يصيح فى أذنى من صدى الحديث .

(٧ يونيو سنة ١٩١٧)

عطفة (ال....)

منزل رقم ٢٢

عطفة (الـ٠٠٠٠) منزل رقم ٢٢

دخلتُ غرفة عملى بوزارة (الـ٠٠٠٠) وجلست أمام مكتبى وأمسكت بجريدة «وادى النيل» اقرأ شيئاً عن السياسة وعن الاخبار. وما لبثت فى مكانى دقيقتين إلا وحانت منى التفاتة للباب فرأيت زميلى «أمين على» يبتدرنى السلام بقوله:

— صباح الخير يا ابو على

فألقيت الجريدة على المكتب ورددت السلام بأحسن منه. ثم تثاءب زميلى فتثاءبت. وقلت:

— جازاك الله يا أمين بالموت على ما بدر منك أمس. لقد سقتنى الى بؤرة كدت أن أموت فيها

— أينا المخطىء؟

— الله أعلم

— دعنا من العتاب. تلك ليلة لا يسمح الزمان بمثلها الا فى السنة مرة. ولولا نهافتك على الخمر وإكثارك من معاقرتها لما سألتَ الله أن يجازينى بالموت على هذا الجميل الذي أسديتُه اليك

— ولكنى مازلت أشكو ألماً فى الرأس وتثاقلا فى الجسد. ويا حبذا لو كان اليوم يوم الجمعة

— وماذا كنتَ تفعل ؟

— كنتُ أتناول مسهلا وألزم سريرى طول يومى

— تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

ثم جلس أمين أمامى وأسند رأسه بيديه ونام أو استسلم للنوم. فنظرتُ اليه وظهرتْ لى على وجهه صورة شنيعة ، صورة المدمن الذى لا يفارق الحانات والمواخير وبيوت الفسق والدعارة إلا عند الفجر .فقلت فى نفسى : « إن هذه الصورة المرتسمة على وجهه ما زالت مرتسمة على وجهى أيضاً . إنه يحب الخمر وأنا لا أبغضها . هو زير نساء وأنا أبحث عن المرأة فى كل مكان . فلا فرق بينى وبينه الا أنه متزوج وأنا أعزب . ولكن الفرق ليس بالكبير لأنه لا يرى امرأته الا ست ساعات فى كل يوم يقضيها وهو مستلق على ظهره بجوارها يغط فى نومه . فامرأته فى نظره كالوسادة فى نظرى . فنحن إذاً فى مستو واحد »

وظُفّت فى وزارة (ا ....) منذ ستة أشهر عرفت أمين فى اليوم الأول من الشهر الاول منها. وائتنست بعشرته وربطتنى به رابطة الاتفاق فى المشرب لا رابطة الود والوفاء . ولكنى استشعرت بعد أن قضيت معه شهرين على صفاء ووئام برابطة الصداقة تربطنى به وتربطه بى. وما لبثنا أن أصبحنا صديقين لا نفترق الا بعد منتصف

الليل . كنت أشتغل معه فى الوزارة وكنت أقضى معه عصر كل يوم فى « سبلندد بار » واذا دنا وقت العشاء أكلنا سوياً فى مطعم «أوبلسيك» أو مطعم «أركل» وكاسات الجعة تحف بخواننا. ثم نقضى الليل فى دار من دور التمثيل أو فى بيت من البيوت المفتوحة أبوابها للناس أجمعين. ثم يرجع كل لمنزله فكنت اسير معه الى باب بيته فى عطفة (ا ا . . .) رقم ٢٢ واسير فى طريقى لمنزلى وانا لا ألوى على احد

كان هـذا شأنى معه وكنت مسروراً من عشرته مغتبطاً بوفائه ومحبته . وظننت أنى سأبقى مستودع اسراره الى الأبد . ولم يحدث بيننا والحمد لله فى الستة الاشهر التى مضت ما يدعو للهجر أو القطيعة

ثم أفاق أمين من نومه وأعطانى سيكارة أشعلتها بعد أن أشعل أختها لنفسه . ومكثنا هنيهة نفكر . ثم التفت الىَّ وقال :

— آه من النساء

— انك ترتأى فيهن رأياً تخالف فيه سواد الناس

— أنا لا أحب الا من يرتدين الازار البلدى (الملاية اللف)

— وأنا لا أكره الا هؤلاء

— ياللعجب أتكره هذا الصنف من النساء وبينهن من يستهوين الافئدة ويمتلكن النفوس

— انى لا أرى فى ذات الازار البلدى الا امرأة قذرة مبتذلة يأنف منها كل ذى ذوق سليم

— أشكرك . . . !

ثم ضحكنا والتفتَ الىّ أمين وقال :

— ان بينهن نساء ذوات حسب ونسب يخشين الفضيحة فيتسترن بهذا الازار حتى لا يعرفهن أحد من أزواجهن

— أتظن ذلك ؟

— بل أعتقده وان شئتَ سردتُ لك حوادث وقعتْ لى مع أمثالهن .

وابتدأ فى سرد قصص كثيرة اندهشتُ لسماعها وظننت أن ليس فى مصر من الاسكندرية الى اسوان امرأة عفيفة . فقلت له :

— لاثقة لى بامرأة بعد اليوم

— كل النساء خائنات وعبثاً الثقة بهن

فسكتُّ ولم أنطق ببنت شفة . وما ذا يريد القارىء أن أقول وصديقى متزوج له امرأة يغار عليها . وكأنه فطن لما كنت أحدث نفسى به فقال وهو يبتسم :

— ما الذى أسكتك ؟ أيدهشك أنى أرمى النساء بالخيانة

وبينهن زوجتي ؟ ولكن امرأتي ياصاح في مأمن من كل ذلك لأنها تعيش مع أمي ، وأمي من النساء اللواتي لا تفلح معهن شدة ولا رجاء.

ثم انقطع حديثنا وقام أمين لمكتبه وابتدأت أن اشتغل قليلا بعد ان سألت الخادم ان يأتيني بفنجان قهوة

غادرت الديوان وذهبت لأتناول الغذاء في المنزل ثم خرجت عصر ذلك اليوم للقاء أمين في «اسبلندديار». وانتظرته هناك نصف ساعة ثم ملات الانتظار فقمت لأتمشى في شارع بولاق . فاذا بهيموج بالناس من مصريين وافرنج . ومنهم من يتتبع النساء ومن النساء من يدخلن حانوت «شكوريل» أو «شملا» لشراء حاجياتهن أو بحجة شراء ما تتوق اليه أنفسهن . ثم وقفت أنظر لامرأة مرتدية ازاراً بلدياً وتذكرت حديث أمين في الصباح وقلت في نفسي ماضرني لو تبعتها ، وقد أعجبني قوامها النحيل ولحظها الفاتك . ووطدت العزم على ذلك وما لبثت أن نفذت ماعزمت عليه

سرت وراءها طويلا الى ان وصلنا الى تلك الحديقة الصغيرة التي يعرفها كل من اعتاد التنزه في شارع بولاق . وهناك اقتربت منها وقلت لها :

— لقد حق لي ولك أن نستريح فعلام الاسراع ؟

المطاردة الغزلية

فنظرتْ الىّ ولم تجب . ثم سارت فى طريقها فقلتُ لها وقد شجعتنى نظرتها :

— الى أين؟ خففى من سرعتك أيها الملاك الجميل .

فالتفتت الىّ مرة ثانية وابتسمت . ثم سارت على مهل فسرت معها جنباً الى جنب وقرأتها السلام . فقالت :

— علام تقتفى أثرى

— لأحظى منكِ بكلمة واحدة

— لقد سمعتَ منى عدة كلمات فدعنى وسر فى طريقك

— ان طريقنا واحد

فابتسمتْ وقالت :

— يالك من أبله

وتحادثنا طويلا . ثم سألتها أن نذهب لمصر الجديدة فقبلت ببشاشة وسرور . ورجعنا أدراجنا الى محطة المترو . وصلنا مصر الجديدة بعد عشرين دقيقة . ودخلنا لونابارك وصعدنا على الجبل الروسى راكبين القطار الصغير . فكانت تمسك بملابسى كلما صعد بنا القطار أو هبط . وغادرنا لونابارك فأظهرت لى عند بابه الميل للعودة الى القاهرة، فقلت لها وأنا أستعطفها :

— علام هذا الاسراع والساعة لم تدق السابعة بعد . أينتظرك أحد فى المنزل ؟

— كلا ان زوجى لا يتعشى فى المنزل

— فلنقض معاً اذاً ساعة أخرى .

وقد قضينا تلك الساعة فى مكان يظهر أنها لم تكن تجهله ولم يكن يجهلها

ورجعنا بعد ذلك وركبنا عربة كانت تنتظر بجوار قهوة البسفور. ولما وصلنا لميدان عابدين سألتنى أن أغادرها هناك فأجبتها لسؤالها عن طيبة خاطر وأعطيت الحوذى عشرة قروش وودعتها بعد ان تواعدنا على اللقاء بعد يومين

ثم تركتنى وسارت فى طريقها بعد أن استحلفتنى أن لا أتبعها. ولما كادت أن تغيب عن عينى قام بنفسى أن أعرف أين تسكن حتى اذا ما أخلفت موعدها معى انتظرتها كل يوم أمام باب بيتها . ولما اقتربت منها سألت الله أن لا تلتفت فترانى . فاذا بى أراها بعد قليل تسير في عطفة (ال...) فدق قلبى دقات متوالية . ثم وصلت للمنزل رقم (٢٢) والتفتت لترى إن كان هناك أحد يتبعها ولكنها لم تتبينى فى الظلام لان الشارع لم يكن من الشوارع المضاءة. ودخلت المنزل فوقفتُ كالصنم لا أتحرك ثم عدت وأنا كاسف البال .

يالله لقد ارتكبتُ إثماً هائلا ولكننى لم أتعمد ارتكابه . لقد أصبحتْ حليلة صاحبي خليلة لى . ولكنها كانت خليلة سواى من قبل

***

فى الغد ذهبتُ للديوان وجلست بجوار امين وتحادثنا كالعادة وذهبنا عصراً «لسبلندد بار» وتناولنا العشاء فى «أبليسك» وقضينا ليلتنا معاً فى ماخور من مواخير العاصمة كأن لم يكن حدث شيء بالامس

(١٨ يونيو سنة ١٩١٧)

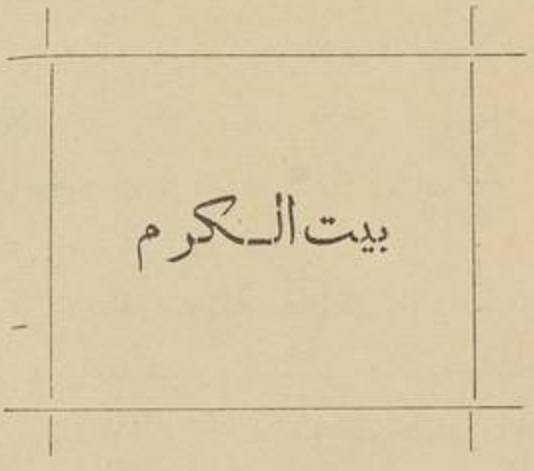
بيت الكرم

بيت الكرم

أسرة مجدى مشهورة فى مصر بالثروة والجاه يؤمها المستغيث ويقصدها كل ذى حاجة . توفى ربها المرحوم عبد الله بك مجدى عن ستين عاماً قضاها — كما قالت الجرائد — فى عمل الخير والبر والاحسان ، تاركا ولدين يبلغ أكبرهما الثلاثين والآخر لا يتجاوز العاشرة وثلاث بنات أبكار لم تسعد أكبرهن بعد بالزواج

ورث المرحوم عن أبيه ثروة طائلة تزيد عن الفى فدان أضاع معظمها حباً فى الخمر وسعياً وراء النساء فلم يترك لاولاده بعد موته إلا ثلاثمائة من الافدنة وعشرة من الرفاق كان ينفق عليهم من حر ماله وكانوا يقضون معه الليل والنهار ليأتنس بحديثهم ويقتل الوقت معهم . وأصبح الولد الاكبر — محمد بك مجدى — بعد وفاة أبيه رئيس اسرة مجدى . وناهيك عن قيمة هذا اللقب فى أعين الرفاق العشرة بعد أن وجدوا فى الولد خير خلف لابيه فقبوه بابن العز والأمارة ورب البيت الذى لم يغلق بابه فى وجه سائل . ولم يكن تلقى محمد بك من العلم والتربية ما يلهمه أن يضرب بأقوالهم عرض الحائط . وأوحى اليه الجو الذى نشأ فيه أن لا يحيد عن الخطة التى اختطها أبوه لنفسه من قبل . فرحب بالرفاق وجلس بينهم كما كان يجلس

أبوه في صدر المكان وهم حواليه يكاد يدفعهم الخشوع والامتثال الى الركوع والسجود

***

نزل محمد بك من الحريم الى (السلملك) وهو مرتد جلابية بيضاء مخططة وعباءة من الحرير الابيض وكان عارى الرأس منتفخ العينين وقد نسج السهر لكل واحدة منهما إطاراً أحمر لو رآه طفل صغير في رابعة النهار لولّى الادبار خائفاً أن ينقض عليه ذلك البعبع فيهشم عظامه أو يسيل دمه

مشى محمد بك مشية الزهو والتيه يميل به الاعجاب بنفسه ويرنح عطفه احتقاره للناس. ومن مثل محمد بك على وجه البسيطة! وهو الغنى العظيم ابن الكرم والسيادة وبيته مأوى البؤساء وملجأ الفقراء. وكان فى ذلك اليوم مقطب الوجه عابساً ساهما وذلك لزيارة وسيط وافاه فى الصباح يطلب يد أخته الكبرى لابن أحد البيكاوات. وهل يسمح محمد بك بذلك ولأخته حصة فيما تبقى من تراث أبيه يصرف ريعها على الحفلات اليومية التى يقيمها كل ليلة في بيته هو ورفاقه الكرام، أستغفر الله بل عبيده المخلصون. وصل محمد بك «للسلملك» وكان الوقت مساء لأن البك لا يفيق من نومه الا الساعة

محمد بك مجدى

السادسة. وكان من عادته النوم بعد الغذاء . ولما دخل غرفة الاستقبال وجد الجماعة فى انتظاره وقد تهيئوا للقائه . فجلس بينهم وهو تائه النظر وقد تعمد ذلك حتى لا يقال إنه يتنازل لرؤية أحدهم . ثم نادى الخادم وأمره أن يجىء بزجاجات الوسكى . وقام الخادم بما أمر به حق قيام . وتناول كل واحد قدحه وشربوا نخب البك

وقام أحدهم واقفاً ، وهو شيخ سكير يناهز الستين كان كاتباً بوزارة (ا ....) وأحيل على المعاش ولم يساعده معاشه على اقتناء الخمر والقيام بأود اسرته فالتجأ لمحمد بك، وليس شىء أحب لنفس محمد بك من أن يلتجىء اليه من يظهر التفانى في محبته والخضوع لآرائه والحاجة العظمى لماله وطعامه . وكان ذلك الشيخ من أصحاب النكات الظريفة المستملحة يترقب الفرص حتى اذا حانت أرسل النكتة من فمه فتقع فى قلب مناظره كما يقع السهم الصائب في ثنايا الصدر . ولم يكن في تلك الحاشية التى جمعتها يد المنكر والفساد رجل يحب الآخر فكلهم متنافرو المشارب مختلفو الاميال ولم يتحدوا الا على كسب أموال البك حلالا كان ذلك الكسب أم حراماً . قام ذلك الشيخ وقال للبك :

— سيدى وولى نعمتى. هل ليدك الشريفة أن تتناول الكمنجة ...

ولم يمهله البك أن يتم قوله فنهره قائلا :

— كفى مجوناً وهذراً ؟

اندهش الرفاق لما فاه به البك لاعتقادهم أنه يحب من يتغنى بشهرته الواسعة فى الكمنجة . اندهش الجميع وسكتوا ولكن شيخنا السكير لم يندهش ولم يسكت بل ابتسم ابتسام الفائز وقال وفى صوته رنة الرجاء والاستعطاف :

— الناس لاتشك في هزرى ومجونى وهم أيضاً لايشكون فى نبوغك وعبقريتك . فهل لسيدى أن يتنازل ويشنف آذان عبيده .

ونظر البك للسماء مادآ يده لوجهة الشيخ

ففطن صاحبنا لما يدور فى خلد البك فمشى على أطراف أصابعه الى ان وصل لتلك اليد الشريفة وتناولها فى يده وقبّلها مراراً وهو يرجو ويستعطف

فقبل البك رجاءه وشنف آذان رفاقه . ولم يكن حفظه الله حانقاً على عبده ولكنه كان ممن اذا رجاهم أحد ودوا لو كرر الرجاء مرات عديدة . وبينما كان البك يشنف آذان رفاقه دخل عليهم رفيق آخر هللوا لقدومه وصفقوا . ولكن البك عبس فى وجهه وصافحه مصافحة جفاء وغضب . فانقلب تهليل الجماعة الى نفور وازدراء . واستمر البك يضرب الكمنجة ورؤوس الرفاق تميل طربا

الى أن انتهى فألقى بها على الخوان ونظر للقادم نظرة تجسم فيها البغض . وقال :

— ما هذا الجفاء ياسعادة الباشا

فابتسم الحضور لتقريع البك وسكت الرجل. فقال البك :

— علام السكوت ؟ أين كنت وعلام تأخرت ؟

— كانت امرأتى تلد

— لقد وضعت باذن الشيطان كلباً

فقهقه الحضور وتمايلوا بأجسامهم . وكانوا يضحكون ارضاء للبك. وليس شيء أقبح من وجه من يتضاحك . ولكن البك كان يتغافل عن كل ذلك تغفيلا لنفسه . وأقسم الرجل ثلاثاً على صحة دعواه فقال البك :

— أنك تكذب . أنت تنكر النعمة التى أسبغناها عليك

— حاشا لله أن أكون ذلك الرجل

— صه اياك والكلام . انى أعرف أين كنت أمس

وسكت الرجل وهو يرى لم يرتكب اثماً . وهل في ذهابه لبيت ابن عم البك مرة في الشهر اثم كبير ؟ ولكن البك كان من الاغنياء الذين تشبه أخلاقهم أخلاق النساء . فتراهم يغيرون اذا ما التجأ أحد حاشيتهم مرة فى حياته الى أحدٍ سواهم

وقام الرجل المسكين وقبّل أقدام سيده ومولاه فصفح عنه بعد أن فرض عليه جزية تقبلها الرجل شاكراً وهى أن يقوم هذا البائس ويقبّل أيادى الرفاق أجمعين ثلاثاً بعد ان يصفعه كل واحد منهم مرة . وكيف لايقبل ذلك الرجل الفقير ذلك وقد وضعت امرأته بالأمس طفلها السادس

ودارت الكؤوس مرة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة . ثم قاموا جميعاً وتناولوا العشاء . وعادوا للراحة فى غرفة الاستقبال . ولبثوا سكوتا ، منهم من أسند رأسه على كتف صاحبه مستسلما للكرى ، ومنهم من انتهز الفرصة وتناول كأساً من الوسكى دون ان يراه أحد ، ومنهم من جلس يفكر فى حيلة يُضحك بها البك لينال رضاءه . أما البك حفظه الله فكان كالميت لايعى شيئاً . وهذا حال كل رجل بدين الجسد اذا أكل ولم يحاذر فى أكله

ثم أفاق البك ونادى أحد الرفاق ، وكان فتى فى مقتبل العمر جميل الصورة أهيف القد اذا مشى تثنى كما يتثنى الغصن وقد لعب به النسيم . وكان البك يميل لمحادثته على انفراد لعذوبة ألفاظه ورقة حديثه فكان لا يصبر على فراقه دقيقة واحدة ولهذا أسكنه فى غرفة من « السلملك » حتى اذا احتاج لرؤيته لايلبث ان يراه .

ناداه البك قائلا :

— أين عودك ياصديقي . أمسك به وشنف آذاننا جميعاً.

فتناول الفتى العود وابتدأ فى الضرب وغنى لحنا تناول البك عند سماعه الكنجة. واشترك فى الضرب والغناء معه . وقام الرفاق يرقصون حتى اذا أعياهم الرقص جلسوا وهم يصفقون ويميلون طربا كأنهم يسمعون «عبده» أو «عثمان» . وعند انتهاء الغناء دخل على الجماعة رجل يبلغ الخامسة والاربعين يلبس منظاراً اسود يحجب عن الناس ما فى عينيه من شر وحسد وحقد . وسلم على الجميع بعد أن قبّل يد البك. وقام البك واقنا رؤيته وعانقه ، والرفاق فى دهشة . وكيف لا يدهشون والقادم صعلوك ممن حكم عليهم قديماً بالحبس للتزوير والاختلاس . وجلس الرجل بجوار البك وأسرّ اليه كلمات ابتسم لها البك وتهللت أسارير وجهه . ولما رآه الرفاق يسر للبك شيئاً ابتعدوا قليلا . فقال الرجل لسيده :

— قد انتهى كل شىء

— كم فى المائة

— ثلاثون

— بورك فيك

وعاد البك للغناء والضرب على الكمنجة والرفاق للرقص والتصفيق

لم يكن هذا الزائر الجديد الا رسول البك للمرابين لرهن مائة فدان هى البقية الباقية من تراث آبائه . وهل يتسنى لمن كان يمتلك ثلاثمائة فدان أن يعتاد هذا البذخ وهذا الاسراف على جماعة يستأجرهم لتقبيل يده والتغنى بكرمه وجوده دون أن يرهن ماعنده ليفقده صفقة خاسرة .

وهبّ بعد قليل نسيم عليل ارتاحت له نفس البك فقال وهو يبتسم :

— لو منّ الله على بألفى جنيه لكنت أشترى بها منزلا فى رمل الاسكندرية لأقضى فيه فصل الصيف من كل عام .

وتنهد البك آسفاً على ذلك المنزل الجميل . فقال أحد الرفاق :

— لاتيأس ياسعادة البك من رحمة الله سوف يمنّ الله عليك بما تريد

ولم تقع هذه الجملة موقعاً حسنا عند البك فغلى الدم فى عروقه وقطب وجهه استياءً ثم صاح :

— يالك من غر أحمق يمنّ الله علىّ ! أتظن أني فقير أيها المجنون

وحق للبك أن يغضب هذا الغضب الكبير وهو الذي يغيث الفقراء ويحمي الضعفاء . فقام اليه الزائر الجديد ذو المنظار الاسود وحاول أن يزيل غضبه . ولكن البك لم يقتنع بشيء وكاد يهم بضرب من اتهمه بالفقر والاحتياج لمعونة الله . وعزز الرفاق سيدهم وسقط الرجل في يده وخرج من الغرفة وهو يتعثر في أثواب خيبته. وجلس البك وهو يرغي ويزبد. ثم تناقص غضبه شيئاً فشيئاً الى أن زال. وعاد الجمع للعزف والغناء والرقص. ودارت الكؤوس ولعبت الخمر بالرؤوس فكنت تسمع في الغرفة النكات تتلو النكات والشتائم تتبع الشتائم الى أن تملك التعب على القوم نفوسهم فاستسلموا اليه وسقط بعضهم على الأرض لاحراك به . واستأذن من تبقى له شيء من قوته تحمله الى بيته الى أن خلا المكان إلا من النائمين . وكان البك ملقى على مقعد وبجواره الزائر ذو المنظار الأسود يفتش في جيوبه . ولما انتهى من عمله نادى ادريس البربري ليحمل سيده الى الحريم . . . . .

***

فرغ صديقي من قصته فالتفت الىّ وهو يقول :

— ماذا تقول في هذه القصة ؟

فتنهدتُ وقلت :

صدق من قال ان شبان مصر الاغنياء لايعرفون للضجر معنى

فأكرم بهم وأنعم

— هذا طريق واحد من عدة طرق يسلكها هؤلاء الأغنياء لقتل وقتهم وضياع ثروتهم

— وهل هناك طرق أخرى ؟

— هيا بنا نخرج لاستنشاق الهواء فى الجزيرة وهناك أقص عليك قصة أخرى . فخرجت معه وكلى آذان مصغية لحديثه ؟

(٢ اغسطس سنة ١٩١٧)

حفلة طرب

حفلة طرب

كنتُ شغوفاً بالحفلات الموسيقية (الكنسير) أيام كنت فى باريس لا تفوتنى من لياليه ليلة تجمع بين الاناشيد الشجية والالحان الفكاهية والوجوه الوضاحة والقدود الملائسة والعيون الضعيفة القاتلة . هناك كنت أمتع عينى بالجمال الذى صاغته يد الخالق فى وجوه الحسان واملأ قلبى لذة يمازجها الطهر وأذنى ألحاناً جميلة ينفسح لها الصدر

***

أيام مضت كما يمر الحلم العذب برأس النائم . والآن أنا بمصر محروم من تلك الجباة المشرقة والوجوه اللامعة والغرر المتألقة والالحان الشجية الجميلة . وما أحوجنى الى رؤية شىء منها ان لم يماثلها جمالا وحسناً فلا أقل من أن يكون باعثاً من بواعث الذكرى تهيج فى قلبى ناراً كاد أن يطفىء أوارها النسيان

جلستُ أمس فى مجلس جمع من الاخوان من كانت تتوق النفس للقائه ويتأجج الصدر عطشاً لرؤيته . وكان بينهم صديق لم تره عينى منذ سنين فكنت أجاذبه أطراف الحديث وكلى آذان صاغية له . ولبثنا نتحادث الى ان أخرج ساعة من جيبه ونظر فيها مليا ثم قال :

— هيا بنا لقد دنا الميعاد

فقلت : وأى ميعاد ؟

— أنا على موعد مع أحد الاصدقاء لسماع مغنية جديدة . فهل لك فى مرافقتى ؟

فأجبته لمطلوبه واستأذنا الجماعة ومشيت معه جنبا لجنب وصلنا الى القهوة ووجدنا على بابها شابا ينتظر ، قدّمه الى صديقى ، فابتدرنا بقوله :

— لنرجع ادراجنا الى منازلنا

فقال صديقى : وعلام ؟

— ان السيدة (. . .) لاتغنى هذه الليلة

وحانت منى التفاتة الى القهوة فقلت :

— ولكنى أرى سيدة جالسة على (التخت)

فقال الشاب :

— يا للعجب لقد تأخرت اذاً عن ميعادها ربع ساعة .

فقلت لنفسى وانا ابتسم (يا للعجب أول القصيدة كفر) . وابتعنا تذاكرنا ودخلنا القهوة ونحن نتسابق لسماع المغنية . وأخذنا مجالسنا بين الجمهور وجلسنا وكأن على رؤوسنا الطير

***

القهوة فسيحة الأرجاء جمعت من شتات الناس المطربش والمعمم ولابس الجلابية الزرقاء، جماعة مختلفي المشارب خارج القهوة متحدى الأميال فيها تعوزهم ريشة المصور لترسم للناس الصور

المغنى الاول

المضحكة المبكية التى تبدو على وجوههم . ثم نظرت لجماعة المغنين وضحكتُ حتى كدت أن ألفت أنظار الناس لولا اندفاعهم لرؤية وجه المغنية الفاتنة التى كانت تبتسم للجميع وتحييهم أجمل تحية .

المغنى الاول شاب اسود البشرة يظهر لى أنه من أم زنجية

المغنى الثانى

وأب مصرى أو أنه نوبى من أهل أسوان أو عامل من عمال العنابر فى مصر . له أنف طويل يكاد يلتطم مع شفته العليا وعينان سوداوان بهما جمال عبثت به يد السهر والخمر وشارب قصير كريش فرشة تنظيف الأسنان . وكان مرتدياً بدلة بيضاء وبها بقع سوداء . فما أقرب شكله لشكل الفرس الأبلق .

والثاني رجل مغلق الأجفان يجتهد فى فتحهما كلما دعته الحالة فتعييه الحيلة . له فم اذا فغره خلته بئراً وأذنان كبيرتان وذقن طويلة تهتز مع رأسه كلما أنشد كأنها تسأل الناس المعونة والأجر . فما أشبهه بحلاق من جهة سيدنا الحسين أصيب بالعمى فجاء ليرتزق فى قهوة عمومية

أما الثالث فكان رجلا مرتدياً جلابية بيضاء وحزاما من المناديل الحمراء الكبيرة وجبة زرقاء وطربوشاً من غير (خوصة) . لم يحلق لحيته منذ أيام فظهرت شعورها فى وجهه كما يظهر النجيل فى الارض القحلاء . وكان اذا أنشد أخذ فمه شكلا هندسياً يشبه المعين . اذا نظرتَ اليه ظننت انه (منجّد) ملك عنانه حب الغناء فأتى الى القهوة ليشنف آذانه ودفعه ذلك الميل الغريزى لامتطاء الدكة

المعدة للمغنين فجلس عليها يساعد الجماعة على اخراج الأغانى صحيحة خالية من العيوب

المغنى الثالث

أما الرابع فهو شاب نحيف الجسد أسمر اللون لاتفارق عيناه أديم الأرض ولعله من المصابين بداء الحياء الشديد. ولهذا لم يتيسر لى أن أتفرس فى ملامح وجهه لأصفها للقراء. فهو رجل كما تقول العامة فى (حاله) ولهذا ندعه فى حاله

أما الخامس فهو شيخ أحنت الايام ظهره فاصبح كالقوس. يداعب المغنية من وقت لآخر ولا أدرى لماذا. له طربوش تظهر منه شعور كتلك الشعور التى أبقتها يد التحنيط على رؤوس الجثث المحنطة فى دار الآثار المصرية، مرتديا بدلة يحار فكر الناظر أمامها. فمن قائل أنها بدلة عادية ومن قائل أنها رد نجوت قصيرة ومن قائل أنها من نوع جديد سوف يحذو على منواله كل حائك فى مصر فلا تلبث ان تصبح الموضة المصرية الجديدة بعد أن انقطعت عنا فى أيام الحرب موضة باريس. وهو أشبه الناس بكتاب الدوائر الكبيرة.

وأما حامل العود فهو رجل بدين الجسد له وجه منتفخ تغار فيه عيناه البراقتان. تظهر عليه بعض مخايل الوجاهة ولا أدرى لماذا. ولعل ذلك لأنه حامل العود، والعود سلطان الالات الغنائية. وأما حامل القانون فهو شاب جميل الصورة أسمر اللون حسن الهندام يظهر عليه انه كان غنياً ثم أناخ عليه الدهر بكلكله. اذا لمست يده أوتار القانون اهتز جسمه بأجمعه مع اهتزاز النغمات وتقصلت شفتاه

وتقطب وجهه. فكأنه يبكى أيامه الماضية وثروته الضائعة

وأما حامل الكمنجة فهو شاب فى ريعان الشباب أصفر الوجه له شارب طويل يرتفع طرفه الايمن الى أعلا وينخفض طرفه الايسر الى أسفل. وجه ليس فيه شىء من التناسب بين طوله وعرضه وجبهة خليقة بأن تكتب عليها بالثلث عناوين الادوار. فما أشبهه بمحررى بعض الجرائد فى مصر

أما الاخير فهو يافع لا أدرى لماذا أتوا به. يذكرنى ببائع آخر كان يمر على قهاوى العاصمة ليبيع السجاير (الفنتزية) التى اذا أشعلتها طار منها شعاع يخيف الاطفال الصغار

أما المغنية فهي امرأة ذات جمال أغريقى فى نحو الثانية والثلاثين من عمرها. قصيرة القامة نحيلة الخصر وضاحة الطلعة سافرة الوجه مرتدية ملاءة سوداء تصل أطرافها الى ركبتيها فتزيدها رقة وحسناً. لها فم جميل لاتفارقه الابتسامة فكأنما تتساقط منه زهور النرجس والورد. ولها شفتان تتعدد أشكالها كلما غنت فتارة تظهر عليهما صورة الاستعطاف وطوراً صورة الاعراض وآنا صورة الحنو والامتثال وآونة صورة التيه والاعجاب. تغنى ثم تضحك وتضحك ثم تغنى. وتبتسم وتخجل. ولا أدرى لماذا تخجل ولماذا تبتسم ولماذا تضحك وان كنت أعرف لماذا تغنى.

ويخيل لى انها اذا خلعت ازارها الاسود وجلست لتحادثك خارج القهوة وهى جادة فى قولها يذهب عن وجهها ذلك الجمال الساحر والدلال القاتل . يشفع ابتسامها الجميل فى ضعف صوتها .

* * *

انتهى الغناء وخرجتُ مع صاحبى فسمعت عند باب القهوة رجلا يقول :

— هذا غناء يتخلله ضحك وابتسام

فقلت فى نفسى :

— لقد أخطأتَ ياصاح هذا ضحك وابتسام يتخللهما غناء ؟

(اغسطس سنة ١٩١٧)

صفارة العيد

صفارة العيد

العطفة التى نتكلم عنها طويلة ضيقة خالية من الأرصفة تبتدىء بحائط سميك وتنتهى عند الشارع الكبير حيث ترى على يمينها قصراً فخما يخاله الناظر سجناً أعد للمجرمين وعلى شمالها قبراً لشيخ وهمى تقف أمامه الرجال والنساء يقرأون الفاتحة وهم ينظرون للسماء نظرة رجاء وابتهال ثم يمسحون وجوههم بأيديهم ليتم الله نعمته عليهم . واذا سرتَ فيها فبلغت منتصفها وجدت (أم مليم) بائعة الطعمية والسلطة والكرات جالسة القرفصاء أمام حانوتها المكون من قفص تعرض عليه ما تبيعه لسائق عربة (الكارو) ولابن السبيل والفاعل. واذا اقتربتَ من بدايتها أى من الحائط السميك الذى يقف فى وجه المارة ليمنعهم من المسير وجدت شجرة كبيرة يتفيأ ظلالها كل من تعب وتملكه الأنضاء . أما اذا أسرعت فى سيرك خشيت أن تعثر فى هاوية صغيرة أو تل لا يزيد ارتفاعه عن عشرة سنتيمترات أو فى القاذورات التى تلقى بها أيدى المارة بلا خوف ولا حذر . أما القصر فهو لأحد البشوات الذين أبوا أن يهجروا الحى الذى نشأ فيه أجدادهم . وهو قصر كما قلنا عظيم يجلس على بابه الخصى واضعاً رجلا على رجل وممسكا بمسبحة يستعين بها على قتل الوقت حتى لا يشعر بسأم ولا ملل . وهو شيخ فى

الخامسة والخمسين من عمره . له شفاه تشبه قطع (البفتيك) التى تقدم لك فى مطاعم العاصمة ، وعينان يزداد احمرارهما كلما (أخذته الجلالة) فنطق باسم الله العظيم ، وأنف أفطس كأنه ضفدعة وجدت فى وجه الخصى منبتا حسناً . وكان طويل القامة ضخم الجثة اذا مشى اهتز كما يهتز الفيل

***

نحن فى اليوم الأول من أيام العيد والناس في هرج ومرج والأطفال يلعبون فى الشارع وقد أمسكوا بألاعيبهم وارتدوا ملابسهم الجديدة وتسامروا وهم يضحكون ويقفزون . والآباء انشرحت صدورهم ومشوا فى الشارع وهم يقولون بعضهم لبعض (كل عام وأنتم بخير) . وكان بين الأطفال طفل نحيل الجسم أصفر الوجه ينظر لرفقائه نظرة تعبر عن غبطة لهم وعن رثائه لنفسه لحرمانه من سرورهم وسعادتهم . وكان خجولا من لباسه القذر وأقدامه الحافية . يقف بجوارهم ثم يضع يديه خلف ظهره ويبتسم كأنه يسألهم السماح له بمشاركته اياهم سرور العيد وليس في ذلك بأس عليهم وهو طفل مثلهم يبكي اذا ألمّ به ضر ويضحك أن نال ماتصبو اليه نفسه . وأنّى له أن ينال بغيته ، وهو يتيم توفيت أمه بعد ولادته بخمس سنوات ومات أبوه بعد وفاتها بعامين فعاله عمه . وأين حنو زوجة

العم من حنو الام ! مشى الأطفال الهوينا ثم غادروا العطفة وتواعدوا على العدْو فى الشارع الكبير . وجروا فيه أشواطاً عديدة فسقط أحدهم على الأرض . فأسرع اليه رفقاؤه وهم يضحكون كما تغرد العصافير وعاونوه على النهوض من سقطته فقام وهو كالح الوجه كاسف البال وقد جال الدمع فى عينيه . ولكنه لم ينس أن اليوم عيد وأن البكاء محرم فيه وأن السرور فرض . فما لبث أن نسى سقطته وتناسى آلامه وجرى خلفهم الى حيث كانوا يقصدون . أما اليتيم فلم ينس آلام نفسه تلك الآلام القاتلة التى كانت تدب فى جسمه فتطفىء نوره وتذهب بجماله ورواءه .

ثم غادر الأطفال الشارع الكبير ومشوا فى العطفة وهم يضحكون وينشدون الأناشيد الصبيانية الى أن وصلوا للشجرة الكبيرة وهناك صاح أحدهم :

— لقد ابتعدنا عن الشارع الكبير وهناك ثمر الباعة . فهيا بنا نعود من حيث أتينا .

وتسابقوا وقد علا صياحهم في الفضاء

***

ومرّت فى الشارع الكبير فى تلك الساعة عربة (كارو) وقد ركب عليها سائقها وهو شاب يشبه جسمه المكعب . له رأس لها أربع أركان يشبه مسطحها المربع . ألهب السائق جواده وهو يغنى

أنشودة بلدية جميلة (أسمر سمرمر صغير السن لوعنى) . ولما اقترب من الخصى قرأه السلام بصوت جهورى فرد عليه الخصى السلام من أطراف شفتيه وهز رأسه كأنه يأسف على تدهور أخلاق السوقة . وعادت الأطفال فى تلك الساعة من الشارع الكبير الى العطفة وهي ملجأهم الوحيد وفى يد كل واحد منهم صفارة اشتراها من بائع يجول فى الطرق . وابتدأوا ينفخون فى صفافيرهم ويغنون . وتلك لعمرى موسيقى تبعث السرور فى القلوب وإن كانت غير شجية لتنافر نغماتها . وقف اليتيم معهم وقد أشجته تلك الموسيقى الجميلة واقترب من رفقائه وهم يرقصون ثم رقص معهم اذ لم يكن فى وسعه أن يفعل غير ذلك . فنظر اليه أكبرهم سناً وقال له بملء فيه :

— أين رداؤك الجديد ياعلى ؟

فلم يجب اليتيم وضحك الآخرون . وقال ثان :

— أين صفارتك أيها الصديق ؟

وقال ثالث :

— كفاكم رقصاً ولنصفر جميعنا . ليرقص من ليست معه صفارة

ولكن اليتيم لم يكف عن الرقص وقد عزّ عليه أن لا يترنح

معهم وضرب صفحاً عما سمعه كأن لم يعرض به أحد .

وفى تلك الساعة مر استاذ قصير القامة طويل اللحية يسير الهوينا فى طريقه وهو يداعب لحيته بيده اليسرى ومسبحته بيده اليمنى . فهرعت الأبناء للقائه وهمّ الخصى واقفاً ثم مشى وقبل يده بينما كان الآخرون يقبلون أطراف جبته . أما الشيخ فهو رئيس الطريقة النقشبندية وهى طريقة تحتم على أشياعها أن يذكر كل واحد منهم لفظ الجلالة مرة فى كل عشرة دقائق . توفى شيخها القديم منذ خمسمائة سنة بعد أن نقشت التقوى على صدره اسم الجلالة ولهذا سميت طريقته باسم النقشبندية .

ثم مر بائع الحلوى فهرعت اليه الأطفال وجرى معهم اليتيم ولكنه كان فى مؤخرتهم فمد اليه أحدهم قطعة من الحلوى قائلا :

— خذ

فأشار على برأسه رافضاً واستكبر الآخر منه ذلك فألقى بقطعة الحلوى على الأرض فالتقطها اليتيم وأعطاها لكلب جائع كان يبصبص له بذنبه . وغادر اليتيم رفيقه وقد ارتسمت على وجهه صورة البؤس ممزوجة بصورة عزة النفس ولحق برفقائه وهو وحيد القلب وان كان كثير الرفقاء . أما رفيقه الذى أعطاه قطعة الحلوى فقد مشى وهو يهز كتفيه ويصعر خده أنفة واستكباراً .

ثم حانت التفاتة من الأطفال الى الشارع الكبير فوجدوا محموداً (الفتوة) قادماً عليهم فصاحوا جميعاً (محمود السبع حضر . محمود السبع حضر) وصفقوا بأيديهم فابتسم لهم محمود وكان (فتوة) عطفتهم وسار فى طريقه على مهل ساحباً أذيال الخيلاء وملوحاً بعصاته فى الهواء كما يلوح الفارس بسيفه . وكان ضخم الجثة قوى العضلات له فى المشاجرات القسط الأوفر والفوز الاكبر . مشهور بين فتوات العطفات الاخرى ولذا لُقّب (بمحمود السبع)

نظر اليه الخصى نظرة امتهان وامتعاض فقهقه محمود ضاحكا حتى استلفت أنظار المارة . وبصق الخصى على الأرض وكان هذا أكبر مجهود يقدر على فعله لأهانة محمود . ثم صاح أحد الأطفال :

— المصارعة . المصارعة خير مما نفعل . ومن يتفوق على نظيره يأخذ صفارته مكافأة له على قوته وشجاعته

فقال الآخر :

— وليكن محمود السبع حكما بيننا

فقال محمود :

— بلا شك

وقال رابع :

— ولكن علياً (اليتيم) لا يملك صفارة .

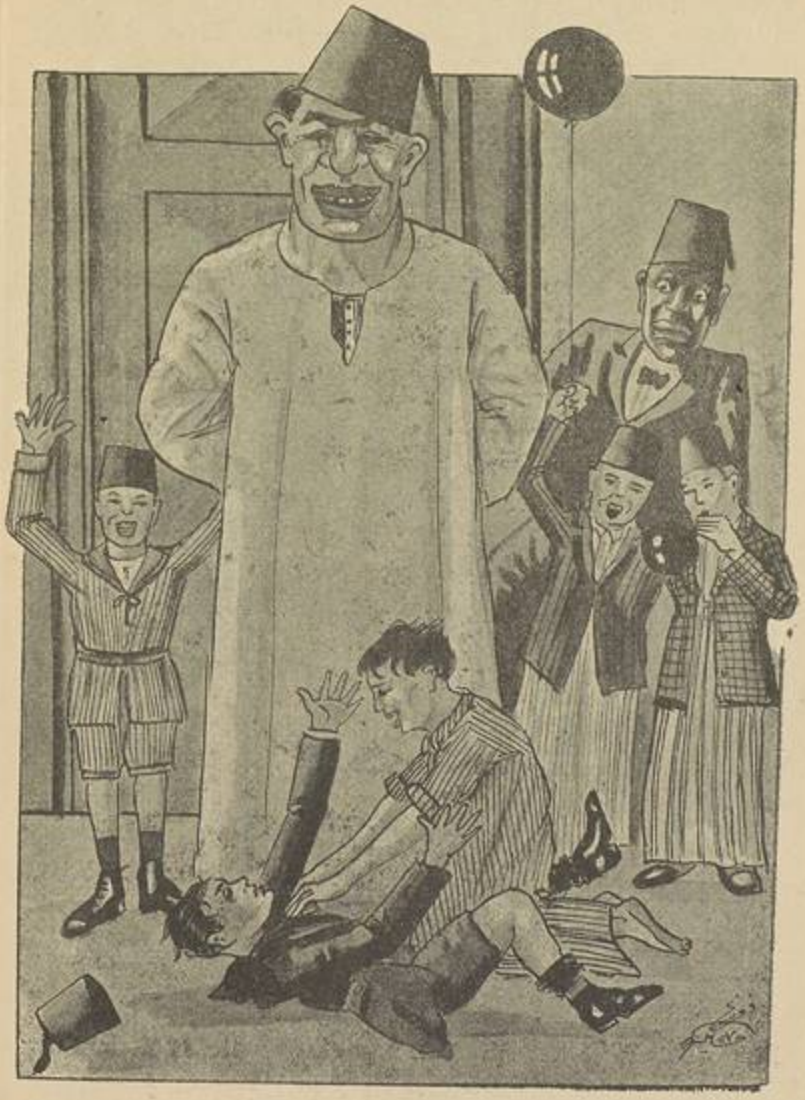

من أجل صفارة العيد

فصاح الطفل الذى رمى لعلى بقطعة الحلوى :

— سأصارعه فان تفوق علىّ أعطيته صفارتى وان تفوقت عليه صفعته على وجهه أمام الجميع

فصفق الاطفال استحساناً وقطب علىّ وجهه وشمر عن ساعده. فكنت ترى عند التحام جسمه بجسم رفيقه صورة غريبة ارتسمت على وجه كل واحد منهما . الاول يدافع عن صفارته والثاني يدافع عن شرفه . والفرق بين الصفارة والشرف كبير. وتغلب علىّ على رفيقه وألقى به على الارض وهو ممسك بتلابيبه . وفرّق بينهما الرفاق فقام علىٌّ وهو رافع الرأس وقال :

— أين الصفارة ؟

فقال محمود السبع للمغلوب :

— اعطه الصفارة .

ثم أدار وجهه عن الاطفال وذهب للقاء صاحب له . فأخرج المغلوب صفارته من جيبه بعد تردد ومد يده الى عدوه فأخذها علىٌّ ووضعها في فمه كما يضع الظمآن حافة الكأس المثلج بين شفتيه وكأنه امتلك العالم بأجمعه . وما لبث قليلا حتى ضحك الحاضرون ضحكة استهزاء وسخرية وكيف لا يهزؤن به ولا يسخرون منه وهو ينفخ في صفارة لم يشترها بماله . فألقى علىٌّ بالصفارة على

وجوههم وسار على مهل وهم يصفقون خلفه . وابتعد عنهم فلم يشاؤوا أن يتبعوه خشية أن يفارقوا نهاية العطفة حيث يكثر الباعة فسار اليتيم الهوينا الى أن وصل للشجرة الكبيرة وهناك وقف هنيهة كأنه يفكر ثم جلس في ظل الشجرة وقد أسند ظهره الى ساقها ونظر جهة اليمين وجهة الشمال فوجد العطفة قفرة كقلبه فوضع رأسه بين يديه وبكى وهو يقول : (أماه . أماه . أبتاه) بينما كانت الاطفال تغنى فى الشارع الكبير

***

ثم أفاق بعد هنيهة فوجد الكلب الذي ألقى بقطعة الحلوى اليه جالساً عند رأسه يلحس دموعه بلسانه الظامىء ؟

(أغسطس سنة ١٩١٧)

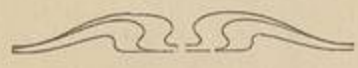

ربى لمن خلقت

هذا النعيم ؟

ربى لمن خلقت هذا النعيم ؟

(هذه القصة لموپسان الكاتب الفرنسى الشهير بدّل المعرب أشخاصها وزمانها ومكانها وموضوعها مصراً كل شىء فيها فلم يبق من الأصل الا روح الكاتب واتبع المعرب فى ذلك خطة تولستوى فى قصصه التى نقلها عن موبسان)

***

محمد بك عبد القادر رجل فى الخامسة والخمسين من عمره أقنى الأنف أسود العينين مقرون الحاجبين يقص شاربه ويعفو عن لحيته . إن مشى يسير الهوينا وان جلس يتربع على كرسيه بعد أن يخلع خفيه . يرتدي الردنجوت ولا يحب سواها من الملابس الافرنجية لأنها أقربها شكلا لمظاهر الصلاح والتقوى . مسلم فى كل أقواله وأفعاله يذب عن الدين كلما تعرض له ملحد لا يتقى الله فى دينه ولا دنياه . ويدافع عن حجاب المرأة فى كل مجلس يتناقش فيه أصحاب مذهب السفور مع المحافظين على العوائد والتقاليد القديمة . وان رأى شاباً جالساً فى حان يتعاطى كأساً من الخمر وقف فى مكانه كالمصعوق ثم بصق على الأرض ومشى فى سبيله وهو يرتل آيات القرآن . له فى بنك الكريدى ليونيه عشرون ألفاً من الأصفر

الزنان لا يتعاطى عنهـا فائدة متبعاً قوله تعالى (وأحلّ الله البيع وحرم الربا) .

يسكن محمد بك فى قصر جميل على ضفاف النيل تحوطه حديقة غناء تتمايل أشجارها كلما داعبها النسيم وتسمع فيهـا تغريد الطيور ممزوجة بألحان أمواج النيل . تلك موسيقى جميلة هادئة كأنها صوت الحب فى آذان العاشق اليائس . واذا ظهر الشفق خلف النخيـل وارتدت السماء ثوبها الأحمر قبيل الغروب خيـل للناظر أن هذا الاحمرار هو دموع الليـل يودع النهار . واذا بزغ القمر فى القبة الزرقاء فى ليلة من ليالى الصيف ودّ صاحب البيت أن لايفارق الحديقة حتى مطلع الفجر . هـذا هنـاء كبير جاد به الله على هذا الشيخ الصالح مكافأة له على عبادته وصلاحه فهو به قرير العين مثلوج الفؤاد تلوح عليـه أريحيـة السرور كلما ذكر الله ، ويلمع في غرته نور البشر كلما صلى على نبيه

لم يرزق محمد بك عبد القـادر الا بفتاة جميلة الصورة حـلوة الحديث غضة العينين كأنها نرجسة جميـلة فى حديقة الشعر لايقف أمامها الا كل شاعر كبير الخيال بديع التصوير . ولقد بلغت تلك الفتاة العشرين منذ أيام . وفكر أبوها كثيراً في أمر زواجها . وحادث زوجته فى هذا الشأن مراراً وعدد لها أسماء كثير من الشبان الاغنياء

المتعلمين الذين يتطلعون لهذا الزواج المبارك . واتفقا على شاب وجدا فيه ضالتهما المنشودة . وحادثت الأم ابنتها عنه فأبدت البنت نفوراً من ذلك الشاب . فأخبرت الأم زوجها بما كان بينها وبين ابنتها فاستاء لتلك النتيجة ولكنه اختار شاباً آخر لم ترفضه الفتاة بل رفضت الزواج كلية . وعزّ على أبيها ذلك الرفض وقامت بنفسه قيامة عصيان البنت لأوامر أبيها فهددها ما شاء وشاء تعصبه وتفانيه في حب كل عقيدة قديمة صالحة كانت أو فاسدة . وأصر على زواج ابنته بالفتى الاول وأبلغها ذلك الحكم الصارم بشدة لم تعهدها فيه من قبل ، قابلتها بالصمت والبكا

***

لم يرق في عين الام أن ترى ابنتها تبكي وتنوح وهالها أن ينبو الفراش عن جسم تلك الفتاة الخرود وأن يطيش سهمها ويخيب رجاؤها وتقف آمالها على شفا اليأس . خلت الأم بابنتها في صبيحة يوم من الايام بعد أن خرج والدها للقاء أحد اصحابه وحادثتها في شأن زواجها بعد أن أقسمت لها أنها ستكون ساعدها الأقوى وعضدها أمام تعسف أبيها وظلمه . فبكت الفتاة وأنّت وجثت أمام امها تسألها الرحمة والمعونة

علام تبكي هذه الفتاة ؟ ولماذا تستعطف ؟ وأي باعث يهيج

فى قلبها تلك النار الكامنة ؟ كل فتاة تحب الزواج وتبحث عن شاب جميل وغنى ، والشاب الذى انتخبه لها أبوها حسن الأخلاق كريم العنصر باذخ الشرف منيع الساحة جميل الصورة كثير المال فلماذا تأبى الزواج به ؟ لعل فى الامر سراً آخر !

هذا ما كانت تقوله الام لنفسها وهى تمسح دموع ابنتها . ولما هدأت الفتاة قليلا قالت لها بصوت تمازجه الشفقة والحنو :

— انى أعدك يا ابنتى أن لاتتزوجى هذا الشاب بل أعدك أن تتزوجى الشاب الذى تصبو له نفسك . فمن يكون هذا الشاب ؟

فنكست الفتاة رأسها وابتسمت ابتسامة باحت لامها بسرها الدفين فقبلتها امها وقالت :

— ومن هو ؟

فلازمت الفتاة الصمت وأسندت رأسها على كتف أمها ولم تشأ الام أن ترهق الفتاة بالأسئلة فاكتفت بما عرفت

***

وعاد محمد بك الى منزله وخلت به زوجته ورجته أن يؤخر هذا الزواج المشئوم فأصر على عناده . فلم تجد الأم بابا من أبواب الرجاء والاستعطاف الا ولجته . ولكن البك عزّ عليه أن يقهر فى

هذا الميدان وقد جهل أن خذلانه أكثر شرفاً من انتصاره . ونظر الى زوجته وقال :

— لعلها تهوى فتى تود الاقتران به ؟

فقالت الام وهي غاضبة :

— واذا كان الامر كذلك فأى ضرر يلحق بنا ؟

— أى ضرر يلحق بنا ! انك تلعبين بالنار أيتها المرأة . انى أحرم على هذه الفتاة ان ترى نور السماء . سوف أعمل على سجنها وسوف تعيش راهبة ما دمت حياً

وخرج من الغرفة وهو كالمجنون ونادى فتاته فأتته ملبية طائعة فابتدرها بالشتم والسباب وكاد أن يضربها لولا وقوف زوجته فى وجهه . وغادر البك المنزل وهو هائم على وجهه

* * *

مضى على هذا الحادث شهران لم يحدث فيهما شيء جديد . وخيم السكون على هذا المنزل فكان البك هادئاً ساكناً لا يلفظ بكلمة تشير للموضوع القديم ولكن نار الغيظ كانت تتأجج فى قلبه . وكانت زوجته هادئة ساكنة أيضا ولكنها كانت تتألم خفية لآلام ابنتها . أما الفتاة فكانت تبكى آناء ليلها وأطراف نهارها

وتتوجع سراً دون أن تبوح لاحد بآلامها . لقد كان لها بارق من المنى كذب برقه وعارض من الآمال أخلف وَدْقه فسلام على ماضى هنائها وسلام على رجائها وآمالها

وفى ذات ليلة تعشى البك كعادته وشرب فنجانين من القهوة ثم دخن سيجارة وابتدأ فى صلاة العشاء ولم يفارق سجادته الا بعد ساعتين قرأ فيهما أربعين وِرداً . ثم قام وتمشى فى المنزل قليلا ودخل غرفة نومه لينام . وحاول النوم ساعة من الزمان فلم يفلح فخرج الى الحديقة دون أن يعلم بخروجه أحد .

تمشى البك فى الحديقة ونظر الى السماء نظرة ابتهال وخضوع فوجد القمر لامع الصفحة والنجوم زاهية فقال مخاطباً ربه : (ربى لمن خلقت هذا النعيم ؟) . ثم نظر للأشجار فوجدها تتمايل يمنة ويسرة وقد هب نسيم عليل يحمل اليه شذى الورد وعبق الياسمين فقال مخاطبا ربه : (ربى لمن خلقت هذا النعيم ؟) . ونظر للنهر فوجد أشعة القمر الفضية تلاعب أمواج النيل ورأى قاربا يحمل قوماً يغنون ويضحكون وسمع فى تلك الآونة نشيد طائر يغنى فى جوف الليل البهيم فقال مخاطبا ربه : (ربى لمن خلقت هذا النعيم ؟) . ثم جلس على كرسى ونظر لكل شىء ، لهذه الصورة الطبيعية التى رسمتها يد الخالق على صفحة الوجود ، لهذا الجمال الذى يكشف الستار عن

عظمة الخالق وقوته وشفقته وحنوه ، لهذه الجنة التى هى مهبط الحب وخلوة اللذة والنعيم فقال مخاطبًا ربه : (ربى لمن خلقت هذا النعيم؟). ثم تذكر أيام كان شابا يخفق قلبه لرؤية الغيد فأغمض عينيه ورتل آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ثم فتح أجفانه وقال : (مانالك إلا جنة ال ...) ولم يدر أى كلمة يتم بها جملته فوقف وهو حائر الطرف واذا به يرى شبحين يسيران نحوه فاختفى وراء شجرة كبيرة تحجب جسمه عن الناظرين ودق قلبه دقات متتابعة وقال لنفسه : (من هوهذا الغريب الذى يجسر على التنزه فى حديقتى قبل منتصف الليل)

واقترب الشبحان منه فتفرس فيهما فاذا به يرى ابنته تسير بجوار شاب جميل الصورة وقد أسندت رأسها على كتفه . عرف البك الشاب بعد ان تفرس فى وجهه وقال لنفسه : (هذا هو الشاب الفقير الذى كان يسكن بجوارنا أيام كنا نسكن بالحمزاوى) ووقف الشبحان وتحادثا على مسمع منه ، فقال الفتى :

— أنا مرغم على تركك ياحبيبتى وانى أقسم لك أنى سأبقى على عهد حبى الطاهر الشريف الى أن يضم عظامى القبر .

فأجابته الفتاة :

— وأنا أقسم لك على ذلك

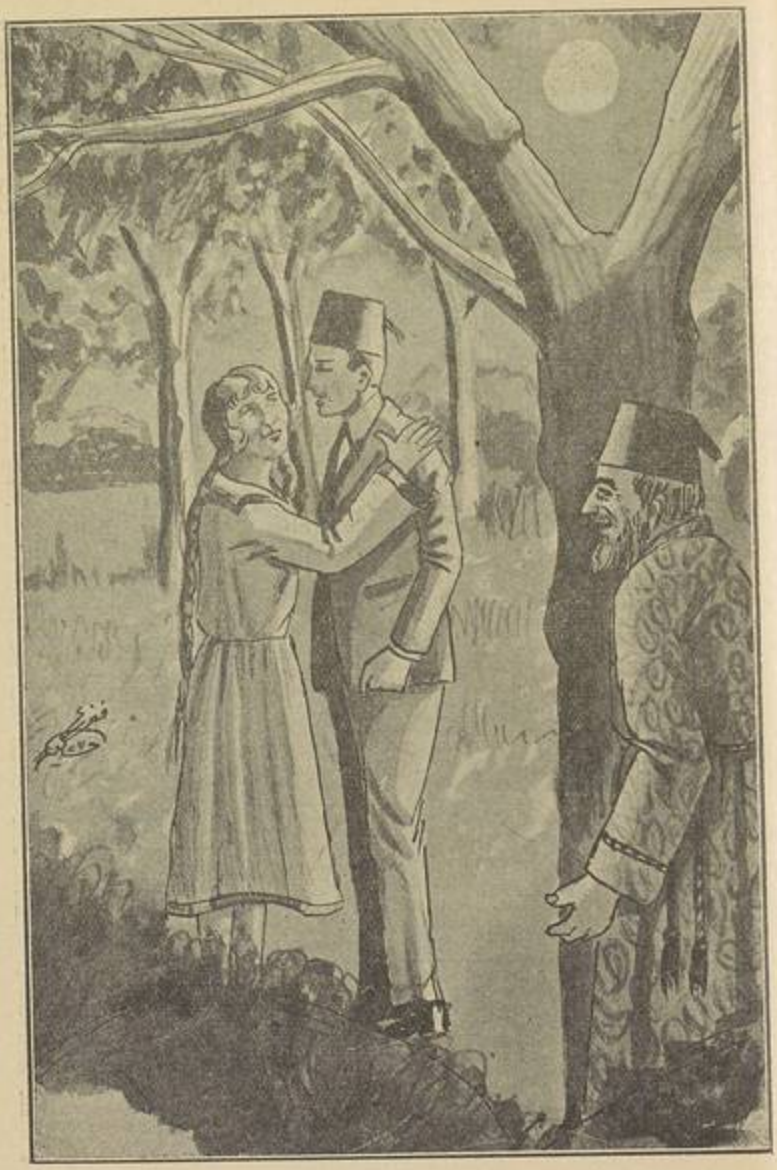

جنة المحبين

وقبّلها الفتى فى جبهتها وسار معها متخذاً وجهة السور ليعود أدراجه الى منزله .

خرج البك من مخبأه وهو ساكن صامت ومكث هنيهة يفكر . ثم نظر للسماء وللنهر وللأشجار ، لهذا الجمال الطبيعى ، لهذه الجنة الدنيوية ، لهذا النعيم الحيوى وقال لنفسه بعد أن فكّر قليلا فيما رآه وفيما سمعه : (ربى انك خلقت هذا النعيم للمحبين ولعمرى مانالك الاجنة الحب) . ورتل آيات من القرآن ودخل الى منزله وقد علت شفتيه ابتسامة تعبر عن هنائه وغبطته

***

مضى على هذا الحادث شهر من الزمان أقيمت في نهايته حفلة قران الفتاة الغنية بالشاب الفقير . وما كانت تلك الحفلة الا رمز انتصار الحب الطاهر على كل شيء

(اكتوبر سنة ١٩١٧)

كان طفلا

فصار شاباً

كان طفلا فصار شابا

أحمد محجوب يبلغ من العمر عشرين عاما ! أقنى الأنف أسود العينين مقرون الحاجبين وضاح الطلعة جميل الصورة طويل القوام . اذا رأته النساء نظرت اليه بطرف خفى ، واذا رأى النساء مشى مشية التيه والدلال . أبوه من أغنياء القاهرة يملك ألف فدان من أجود أطيان الوجه البحرى والقبلى ، وأمه من عائلة عريقة فى الحسب والنسب لا غبار عليها . رباه أبوه تربية مصرية بحتة فنشأ يخاف أباه ويخشاه ولا يجسر على محادثته . واختلط بفئة وضيعة تعلم منها لعب الميسر وولع به ولوعاً أنساه كل لذة فى العالم . وكانت له مربية تبلغ من العمر الخامسة والأربعين ربته صغيراً من يوم أن بلغ الخامسة ، وكان عمرها فى ذلك العهد خمساً وعشرين عاماً . وكانت قد طُلقت من زوجها وهو رجل كان معاونا فى احدى زراعات الدومين . ومحجوب يحب مربيته ولكنه لا يخشاها . يهزأ منها اذا أغضبته ثم لا يلبث أن يسترضيها فتنسى اساءته وتقبله وتضمه لصدرها ضاحكة مستبشرة .

لقد بلغ محجوب العشرين ولكنه لا ينسى أيام كانت تضربه مربيته وهو طفل اذا هفا هفوة أو ارتكب اثماً .

أينسى يوم أن تسلق شجرة النبق فى الحديقة وكاد أن يسقط على الأرض . لقد أمسكت به مربيته والعصا فى يمناها تقرعه بها ناهية إياه أن لايعود لما فعل . وهل ينسى يوم ان مكث فى الفناء يلعب ويمرح وكان الوقت ظهراً فنهاه السقاء عبد الرزاق عن ذلك فشتمه ورفصه برجله الصغيرة . انه لاينسى ذلك اليوم وقد لطمته مربيته على وجهه وهى تؤنبه على ما فعل . وهل ينسى يوم ان التقط من الأرض سيجارة أبيه وأراد أن يدخنها فرأته مربيته من النافذة ونادت به فهمّ بالهرب وأبى الدخول للمنزل الى أن حمله الخصىّ وأتى به اليها لينال جزاءه . انه لاينسى كل ذلك . وان للطفولة حوادث تبقى مرسومة فى رؤوس الشبان والرجال الى الابد

وكان القصر الذى يسكن فيه محجوب وعائلته فى حى من الأحياء الوطنية ذوات الشوارع الضيقة . وكانت تحوطه عدة بيوت صغيرة لأقوام من بيئة ليست بالغنية ولا بالفقيرة . وسكن أمام قصر محجوب رجل تاجر حسن السيرة له زوجة وبنت تبلغ الخامسة عشرة وولد يبلغ العشرين يساعده فى ادارة حانوته .

وكانت تشتغل زوجته طول نهارها فى أعمالها المنزلية وتساعدها بنتها من وقت لآخر . واذا ما خلت البنت بنفسها جلست أمام

النافذة التى تطل على غرفة محجوب تنتظر إيابه من المدرسة . فكان اذا ما دخل غرفته أشارت اليه بالسلام ويبتدآن فى المغازلة . ففى ذات يوم دخلت عليه مربيته فوجدته يشير بيمناه للفتاة فنظرت اليه نظرة ريبة وامتعاض ثم تركته وخرجت من الغرفة دون ان تنبس بكلمة . ولم يعر محجوب ذلك الحادث اهتماماً وانقضى اليوم على صفاء . ولكنه لاحظ بعد ذلك ان مربيته تكثر من الدخول فى غرفته ساعة إيابه من المدرسة كأنها تود أن تمنعه عن محادثة الفتاة . فساءه ذلك منها وود أن تكف عن مراقبته فعمد الى حيلة ناجعة . فكان اذا عاد من المدرسة أحكم اقفال باب غرفته بالمفتاح ليفعل ما يوحيه اليه هواه

واهتدت مربيته لسر حيلته فدقت على بابه بيدها ففتحه لها بعد ان أشار لفتاته أن تتوارى . ودخلت المربية ووجدت نافذة الفتاة خالية فابتسمت ابتسامة الهازىء وقالت له :

— لقد طار العصفور من القفص

— وماذا تقصدين من ذلك ؟

— انك ياولدى تسيء لنفسك . أنسيت أن الحب يشغل المرء عن اداء واجباته .

— انى حريص على أدائها فدعى اللوم جانباً

— يالك من غر أحمق

— انى أكره أن يسبنى أحد

— ولكنك ترتكب المعاصى على مرأى من الناس . ألا تخشى أن أخبر أباك بما تفعل ؟

— أبى لم يخرج من غرفته بعد فهل لك أن تذهبى وتقصى عليه ذلك

— سأفعل

وخرجت وهى غاضبة. وخاف محجوب أن تخبر أباه بهواه . فلما دنا وقت العشاء أبى أن يأكل مع أبيه فادّعى المرض ونام وهو جوعان .

ثم مضت أيام وهو يسأل نفسه عن سر مراقبة مربيته له فلا يهتدى إلى شىء . انه لم يلاحظ شيئاً فى حركاتها ولا فى سكناتها فعلام لاتتركه حراً يفعل مايشاء وليس فيما يفعل ما يدعو للخوف والحذر . وعلام تغار من هذه الفتاة التى لم تبلغ الخامسة عشرة وهى امرأة أربت على الخامسة والأربعين . هذا سر غامض يدعو للتفكير

***

خرج محجوب فى يوم من أيام الجمعة وقابل رفقة من أصحابه لعب معهم الميسر وخسر ما فى جيبه فرجع البيت وهو يعض بنان الندم . وسأل عن أبيه فقيل له انه خرج وعن والدته فقيل أنها

ستتناول طعام العشاء عند خالته . فدخل غرفته وجلس أمام نافذته وأمسك برواية من الروايات الحديثة ليقتل بها الوقت . وبعد هنيهة رأى حبيبته فى النافذة تبتسم له . ولبث يحادثها ويشير لها الى أن رأى خيال مربيته فى الغرفة الأخرى فكفّ عن محادثة حبيبته وأشار لها أن تبتعد فابتعدت وجلس وحيداً ينتظر الرقيب .

فدخلت مربيته بعد عدة دقائق وقد استشاطت غضبا وقالت بصوت متهدج :

— هذه هى المرة الاخيرة فان عدتَ لفعلتك أخبرت والدك بكل ما فعلته

— وأى باعث يستفز غضبك وأنا لم أجن ذنبا يستحق اللوم؟

— أي باعث يستفز غضبي ! انك حقاً ساذج لا تعرف الى أى هوة أنت مسوق . وأخشى أن تدور الدائرة عليك

— انى أكره هذا الحديث

— أتأبى استماع نصائحى ؟

— انها لا تصلح الآن بعد أن كلمتنى الرجولة

— يا لك من شاب أبله

سمع محجوب هذه الكلمة فقام غاضباً وهم أن يغادر الغرفة فأمسكت به مربيته ولفّت ذراعها على خصره ومنعته من الخروج .

محجوب ومربيته

فهمَّ بالافلات منها فلمس جسمه جسمها فلم يجد بأساً فى البقاء . ظف ساعده أيضاً على خصرها متظاهراً بالهجوم ليدافع عن نفسه . ووقع نظره على وجهها فاذا به يرى صورة غريبة شهوانية لم يرها من قبل فى ذلك الوجه الذى عرفه من يوم أن كان (يحبو) على الوسائد . فوقف هنيهة ينظر اليها وتنظر اليه ، وكانت لم تزل بضة البشرة عليها مسحة من الجمال بالرغم من الخمسة والاربعين عاما التى قضتها . وكان محجوب شابا يهيج شهوته الخادرة أىُّ باعث صغير . فأطال النظر اليها وأطالت النظر اليه وسمع أنفاسها تتردد فى صدرها وهى تنظر لخصلة شعره الاسود المسدلة على جبينه . ثم قبلته فى فمه فقبلها فى فمها وتعانقا وتلاصق جسمها بجسمه . وأحس بنهديها الذابلين تدلك بهما صدره ....

ثم غابا عن الوجود

* * *

لقد كان طفلا جميلا فكانت تحبه مربيته كأم حنون والآن صار شاباً جميلاً فأحبته مربيته كعشيقة ضرم الحب أنفاسها .

فياللعجب مما تراه العيون فى ظلام هذه الحياة ؟

(سنة ١٩١٧)

خواطر قصصية

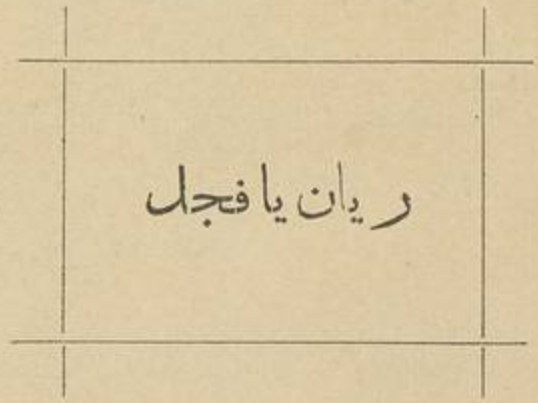

ريان يافجل

قضيتُ صباح أمس ساعة فى قهوة بميدان الاوبرا قرأت فيها الجرائد وشربت فنجاناً من القهوة ثم هممت واقفاً وعزمت على العودة لدارى للغذاء فقصدت ميدان العتبة الخضراء لاركب الترام. وبينما كنت ماراً أمام دار البريد استوقفنى شاب أسمر الوجه وضاح الطلعة قوى العضلات رشيق الحركات يدل بريق عينيه على ما فى قلبه من عزم ونشاط. وكان لابساً معطفاً جديداً يخفى بدلة ماشككت فى أنها من عمل « دليا » أو « ريبو ».

استوقفنى الشاب بقوله :

— صباح الخير

فرددتُ السلام ونظرت اليه نظرة عبرت له عن استغرابى وحيرتى. وقلت لنفسى: « ماذا يريد الشاب منى وليس لى به معرفة ولم أصادفه فى طريقى قبل اليوم. لعله صديق أحد أصدقائى يود محادثتى فى أمر يخص ذلك الصديق. أو لعل له قصد آخر ». ومشى الشاب بجانبى وهو يبتسم ويقول :

— البك بلا شك على موعد لأنه يسرع فى سيره.

— كلا ياسيدى أنا عائد لدارى.

— أيسمح لى البك بخمس دقائق .

— بلا شك .

— البك يعرف ما يلقاه الأديب من الضيم فى مصر ، والبك يعرف كساد سوق الأدب فى مصر ، والبك يهمه أمر الأدباء فى مصر ، والبك يساعد الادباء فى مصر .

فأجبته بابتسامة صفراء قائلا :

— والبك ليس فى جيبه إلا ثمن تذكرة الترام .

فضحك الشاب وقال :

— أنا أطلب مبلغاً لا يزيد عن شلن ولا ينقص عن نصف فرنك ، والبيك كريم .

فأخرجت من جيبى قرشين أعطيتهما له وسرت فى طريقى لأركب الترام .

***

نزلتُ من الترام عند باب الحلمية واتخذت وجهة دارى وأنا أسير الهوينا . وعند وصولى للمنزل وجدت شيخاً يبلغ الستين ضخم الجثة محنى الظهر له لحية بيضاء تتدلى على صدره ، يدفع بيده عربة صغيرة عليها فجل يبيعه للناس . يسير هنيهة ويستريح أخرى

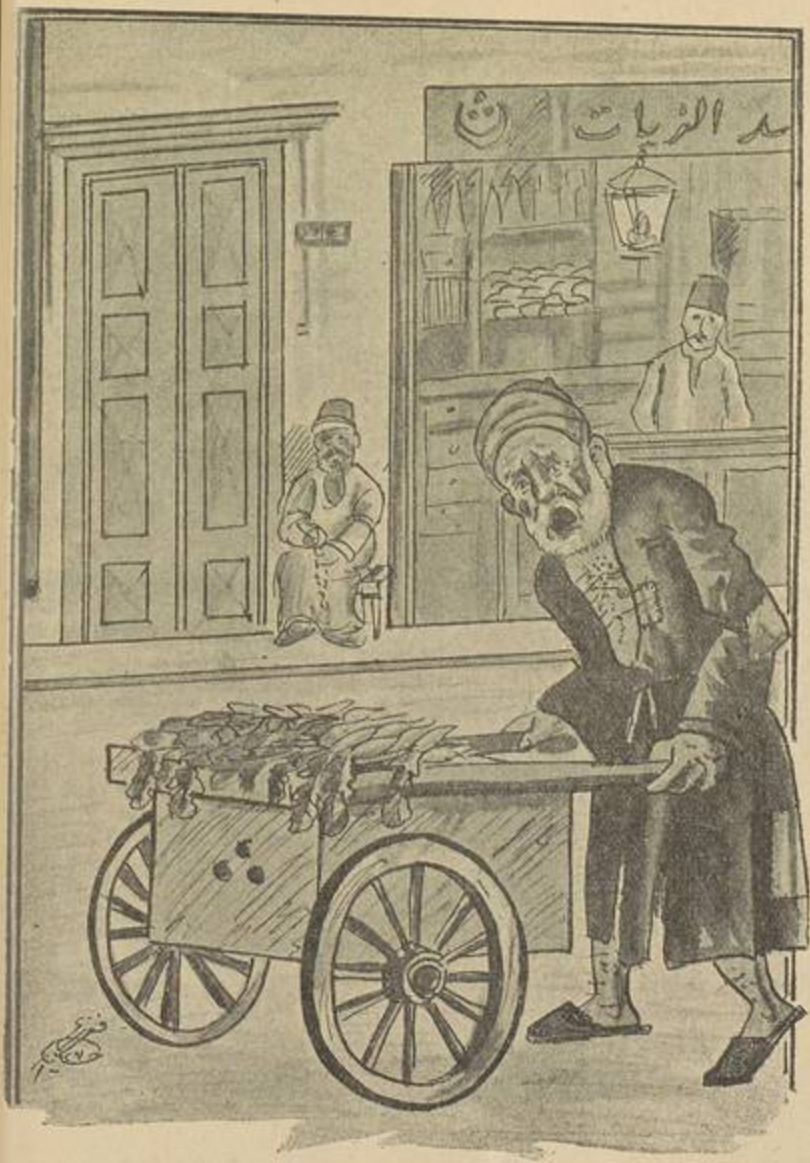

﴿ ريان يافجل ﴾

ويصرخ من أعماق قلبه (ريان يافجل) والناس تسير بجواره دون أن تهز قلوبهم الشفقة فيجودون له بثمن كأس من الجعة اعتادوا شربه كل مساء .

سار الرجل فى طريقه الى أن وصل الى نهاية الشارع . وحانت منى التفاتة له فوجدته يصرخ (ريان يافجل) . ثم وقف هنيهة ليستريح واذا به يهوى على الأرض . فأسرعت مع الخدم اليه فوجدناه ملقى على الثرى وهو يلهث من التعب وقد عجز عن الكلام . فحملناه الى الدار ليستريح ويأكل ويشرب .

***

سبحان ربى ! الفرق كبير بين الاثنين . الأول شاب اتخذ الكسل حرفة والأدب ذريعة . والكسل سبيل التدهور الى الدنيا التى تموت فيها العواطف أو بالحرى الى الموت الأدبى . والثانى شيخ أقعده الكبر ونال منه الضعف ولكنه أبى أن يرجع القهقرى فى المعركة الكبيرة ، معركة الحياة ، وعز عليه أن يمد يده للسؤال فعمد للعمل مفضلا الموت على الجبن . والعمل سبيل الارتقاء الى الدنيا التى يسمو فيها الانسان لذروة الشرف أو يموت فيها ميتة الأبطال ؟

(مايو سنة ١٩١٨)

سارق وسارق

سارق وسارق

الشيخ أحمد ، يافع أصفر الوجه نحيل الجسم إذا مشى سار الهوينا لضعفه وانحلال قواه . وإذا نظر اليك انبعث من عينيه بريق يهز أوتار قلبك ويبعث فيه الشفقة والحنان . تراه فى صبيحة كل يوم يحمل على ظهره المقوس ألواح الثلج يسير بها فى شوارع الرمل ليودعها فى البيوت والقصور وما ساقته لذلك غير الحاجة ولا قادته غير البلوى فهو من الفقراء البائسين الذين لا حول لهم ولا طول . ولقد أطلق عليه أطفال الرمل اسم « الشيخ احمد » لسذاجة طبعه وضعف قوته . فهو فى نظرهم أعوبة يقتلون به الوقت ، والوقت فى نظر الاطفال لا قيمة له . بيد أن اسم الشيخ احمد التصق بشخصية ذلك العامل المسكين فردده الكبير والصغير والغنى والفقير والشريف والحقير . وأصبح حامل الثلج لا يُعرف فى حي الرمل بغير ذلك الاسم .

اعتدنا أن نرى وجه ذلك المسكين في كل صيف عند مجيئنا للاسكندرية . وكأنا نرى برؤيته جزءاً من رمال الرمل وغياضها وبحرها الهائج . غير أنا فى هذا العام حرمنا رؤية وجهه البائس شهراً من الزمن شعرنا باختفاء شيء اعتدنا رؤيته كل صيف . ثم ظهر

الشيخ احمد فى ربوع الرمل يحمل على ظهره ألواح الثلج . ورأيناه فى صبيحة يوم من الأيام يطرق بابنا ويدخل فناءنا وهو يبتسم كأنه يقرىء أرض الدار وجدرانها وكل شىء فيها سلامه ويبثها أشواقه . ولو كان للارض والجدران لسان يتكلم لسمعنا حديث الشوق وتحيات اللقاء بعد الفراق . ناديته فلبى ندائى ووافانى يتعثر فى مشيته فسألته عن سر غيبته فقال :

— كنت رهين السجن ياسيدى .

— الشيخ احمد يزج فى أعماق السجون !

— إنى والله برىء .

— وكيف كان ذلك ؟

— سيدى لا يعرف الرجل الذى يشترى الملابس الرثة ثم يبيعها فى الطرق بعد اصلاحها .

— أعرفه ياشيخ احمد وأسمع صوته كل يوم فما هو الاحانوت متنقل

— بورك فيك ياسيدى فقد عرفتَ الرجل . لقد سألتُه يوماً شراء ثوب كان فى يده وساومته على الثمن فأبى أن يبيع الثوب بعشرة قروش وغادرنى وسار فى طريقه . ولكنه التفت الىّ بعد حين وناداني قائلا هات الثمن وخذ الثوب . فاعطيته ما كان فى جيبي

وكنت لاأملك سوى عشرة قروش. فوضع الدراهم فى جيبه وسار فى طريقه. فجريت وراءه لآخذ الثوب ولكنه نهرنى ثم ضربنى وربح الصفقة منى. فالتفتُّ يمنة ويسرة لعلى أجد فى الطريق رجلا ذا شهامة ومروءة يرد الىَّ مالى فلم تقع عينى على غير آكام الرمل. فعدت أدراجى صفر اليدين لا أملك أبيض ولا أسود. ولكنى أقسمت أن أنتقم من ذلك الوحش بل من ذلك الجبان الذى وجد ضعفى وبؤسى وسيلة يبرر بها جريمته. وقابلته بعد أيام ثلاثة وكان قد وضع حمله أمام بيت دخل فيه يساوم بعض الخدم على شراء ثوب عتيق فأخذت من بين بضاعته الثوب الذى دفعت ثمنه. وما دفعنى لذلك غير الانتقام. واذا بالرجل خرج من البيت وجرى ورائى وأمسك بى ثم أخذ الثوب منى. وما زلتُ بين يديه يصفعنى تارة ويهزنى طوراً الى أن سلمونى ليد البوليس وحكم على بشهرين قضيتهما بين جدران السجن. ثم ابتسم الشيخ احمد وقال:

— ولكنى لا أكذبك القول. لقد كنت على أحسن حال فى سجنى فما شكوت ضيقاً ولا جوعاً.

وغادرنى الشيخ أحمد وهو يبتسم حاملا ألواح الثلج كعادته. فقلت فى نفسى حرام أن يعاقب الابرياء أما المجرمون

﴿ الشيخ احمد يقبض عليه البوليس ﴾

فما زالوا يعيثون فى الارض فساداً. ثم ألقيت نظرة أخرى على الشيخ احمد وهو يتوارى عن نظرى فرأيت فيه صورة البائس الذي يخرجه المجتمع الانسانى من حيز الأبرياء الى حيز المجرمين. وكيف لا يكون الامر كذلك والشيخ أحمد لم يشك فى سجنه ضيقاً ولا جوعاً؟

(١٣ اكتوبر ١٩١٨)

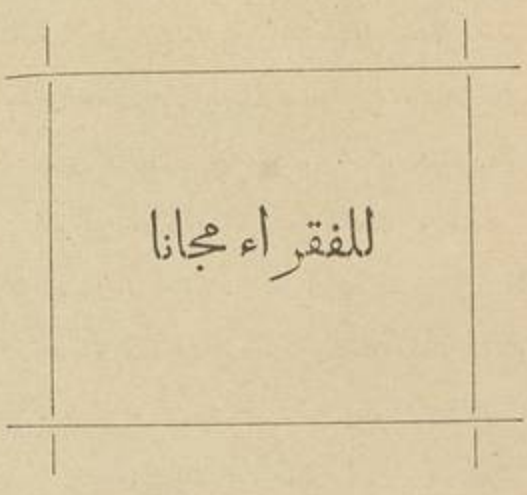
للفقراء مجانا

للفقراء مجانا

بينما كان الظلام ملقياً رداءه الاسود على المدينة والسكون ضارباً خياله والناس رقوداً في منازلهم كان الدكتور (. . . بك) جالساً أمام مكتبه يخط بيده الكريمة مايمليه عليه وجدانه الحي. وكيف لايكتب الدكتور فى تلك الساعة وغداً ستقام حفلة كبرى لأول مجمع طبي مصرى يخطب فيها الدكتور خطبة شائقة تمتلك على الناس نفوسهم وتستهوى أفئدتهم. أجل يكتب الدكتور ثم يفكر ثم يكتب وهو ممسك بالقلم في يده كأنهُ رمز الجد والعمل والحنو والشفقة. وما لبث الدكتور فى مكانه قليلا حتى سمع صوت الساعة تدق الثانية عشرة فوضع يده على رأسه وقال :(حان ميعاد النوم ولكن الخطبة لم تتم بعد) . وأمسك بيده القلم مرة ثانية وكتب الجملة الآتية : (الطب أيها السادة هو النبع الفياض الذي يستقى منه الفقير بلا أجر ولا ثمن ، الطب هو الدار التى يدخلها المريض وقد أشفى على الهلاك فيخرج منها صحيحاً معافى ، بل الطب فى نظري أيها السادة كبيوت الله تجمع بين الفقير والغنى والبائس والسعيد فى مستوى واحد ، بل ربما كان الطب أوسع صدراً للفقراء وأحنى قلباً على الضعفاء البائسين ، الطب . .) ثم تمهل الطبيب قليلا وفكر كثيراً

وهو جالس أمام مكتبه يمنعه عن النوم والراحة ضميره الطاهر ذلك الباعث القوى ، باعث الخير والاحسان والشفقة على الفقراء من بنى جنسه .

وكان الدكتور يسكن حيًا وطنيا يضم فى أحشائه جماعة ممن يبيتون على الخسف ويشربون على غير نميلة ، قوم فقراء أضرّبهم المرض وشفهم الحزن . وعلق الدكتور على باب داره لوحة كبيرة كتب عليها بالثلث « للفقراء مجانًا » ١٠٠ أجل هاتين الكلمتين (للفقراء مجانًا) . إذا مر الفقير وقرأهما دخل دار الدكتور وهو يقول : (سأدخل مريضًا وأخرج صحيحاً دون أن أدفع للدكتور ثمن عشاء الاطفال في البيت) . أجل اذا قرأها الفقير تهلل وجهه وبرقت أسرته وابتسم ابتسامة تعبر عما فى قلبه من الشكر والرضى . وما رضى الفقير الا حسنة من حسنات الله على بنى الانسان .

قلنا إن الساعة كانت تدق الثانية عشرة وأن الدكتور كان يكتب ونسينا أن أحد الفقراء في تلك الساعة كان جالساً القرفصاء بجوار فراش ابنته الحامل التى كانت تصرخ من الألم وهى ترتعد من البرد وقد اصطكت أسنانها وتقلصت شفتاها وسالت دموعها على خدها تكتب سطور البؤس والألم . ابنة في الثامنة عشرة من عمرها مات زوجها بعدأن تركها حاملا ، وهى الليلة تلدوقد تعسرت

ولادتها فأصبحت على قيد شبرين من الموت . جلس الرجل الفقير القرفصاء واضعاً رأسه بين يديه وهو كاسف البال غائر العينين لا يعرف ماذا يفعل ولا يهتدى لوسيلة يخفف بها آلام ابنته . واذا بزوجته العمياء التى كانت تبكى وتضرب رأسها فى الحائط تقول له :

— أنسيت أن الدكتور . بك يعالج الفقراء مجاناً . اذهب اليه واطرق بابه فربما رق قلبه وأنقذ ابنتنا من مخالب الموت .

فقام الرجل دون أن يفوه ببنت شفة واتخذ وجهة الباب وخرج للشارع ليأتى بالطبيب . ومشى الرجل فى الشارع وهو يترنح كالشارب الثمل الى أن وصل لباب الطبيب ودقه ثلاثاً فخرج خادم أسود وهو يهينم ويزمجر وقال له :

— ماذا تريد ؟

— ابنتي تموت . أريد أن أحادث الدكتور .

— الدكتور مشغول جداً وقد نبه علىَّ أن لا أجيب سائلا .

— ولكن ابنتى تموت .

فأقفل الخادم الباب . ورجع الفقير من حيث أتى وهو خافق القلب . ولكنه وقف هنيهة قبل أن يصل لمنزله وقال لنفسه : (أجل سأفعل ذلك وماضرنى لو فعلته) واذا به يرى رجلا يسير الهوينا فى الطريق فمد له يده وقال : (حسنة ياسيدى) فانتهره الرجل وسار

فى طريقه . ومر رجل ثان وثالث ورابع وكان نصيب الفقير الخيبة فى كل مرة . وإذا بالشرطى يقول له :

— ما هذا الفعل يا رجل ؟ متسول فى الطريق . هيا الى القسم .

ولم يكن مع الفقير ما يسد به فم ذلك الشرطى فقال له :

— لم أتعود التسول ياسيدى ولكن ابنتى تموت فأردت أن أجمع أجرة الطبيب فلم أجد غير هذه الوسيلة .

ولكن الشرطى قاده الى القسم وهناك قضى ليلته .

وفى الصباح عاد الفقير الى منزله بعد أن أطلق سراحه وكانت الساعة تدق العاشرة واذا به يسمع صراخاً وولولة فهرول لداره فوجد زوجته تبكى وتصرخ وابنته قد فارقت الحياة فانكب عليها وقد فقد الرشد .

وفى هذه الساعة، الساعة العاشرة كان الطبيب « الدكتور... بك » واقفا يخطب في المجمع ويصيح بملء فيه (الطب أيها السادة هو النبع الفياض الذى يستقى منه الفقير بلا أجر ولا ثمن ، الطب هو الدار التى يدخلها المريض وقد أشفى على الهلاك فيخرج منها صحيحا معافى ، بل الطب فى نظرى أيها السادة كبيوت الله تجمع

بين الفقير والغنى والبائس والسعيد فى مستوى واحد. بل ربما كان الطب أوسع صدراً للفقراء وأحنى قلباً على الضعفاء والبائسين ، والطب ...)

(٤ ابريل سنة ١٩١٨)

درس فى كتاب

درس فى كتاب

يطلق سكان باب الخلق والحمزاوى والسكة الجديدة على حارة درب سعادة اسم (شارع) ولا أدرى لماذا يفعلون ذلك وحارة درب سعادة ضيقة تكاد تلتطم العربات بجدرانها إذا مرت فيها وهى ملأى بالقاذورات والأوحال صيفاً وشتاء . وقد عززت الحكومة رأى السكان فلم تضن عليهم بلوحة مكتوب عليها بخط جميل (شارع درب سعادة) وان كانت ضنت عليهم بمصابيح الانارة . وفى هذه الحارة ، أستغفر الله بل فى هذا الشارع ، جامع يقصده عباد الله للصلاة . وبجوار هذا الجامع كُتّاب صغير يُطلق عليه كُتّاب (سينو اغا) . كنت أسكن هذه الناحية وأنا صغير . بل فى هذه الناحية ولدت وفيها ربيت . ولم أتركها إلا وأنا يافع بعد أن بعنا دارنا الكبيرة التى لم يبق منها الا دمن تبعث الذكرى فى القلوب ، ذكرى الطفولة العذبة الجميلة . أذكر انى وددت وأنا صغير أن أزور الكُتّاب لأقارن بينه وبين المدرسة التى كنت أذهب اليها كل يوم. فدخلت مع خادمى وصعدت للطابق الأعلى ورأيت الأطفال جلوساً كُلاً أمام قطره وهم يرددون آيات القرآن الكريم بنغمة حلوة شجية . وكان (الفقى) غائباً ذلك اليوم أما (العريف) فكان واقفاً

فى وسط الغرفة وبيده عصا (جريدة) تنظر اليها الأطفال نظرات ينبعث من بريقها الخوف والوجل . رآنى العريف وحيانى أجمل تحيـة وأجلسنى على كرسيه وصرخ فى الأطفال صرخة أراد بها اظهار مقامه بينهم ولكنى لا أنكر أنى ارتعدت عنـد سماعها كما يرتعد العصفور أمام الباشق . ثم التفت يميناً وشمالا فرأيت طفلا ينسل من مكانه لركن الغرفة وهو يخفى فى يده شيئاً. واذا بالعريف يصيح :

— الى أين ؟ وكيف تجرأ على مخالفة النظام ؟ تعال هنا

فأتى الطفل وهو يتعثر فى مشيته . وصاح العريف مرة ثانية :

— علىَّ (بالفلقة) .

فأتاه بهـا أكبر الأطفال سناً. وشدوا وثاق الطفل. وأقسم العريف بأغلظ الأيمان أنه سيضرب الطفل ضرباً مبرحاً لأنه خالف النظام والأوامر الجديدة . وهمَّ بضربه وهو يقول :

— اقسم بالله والنبى والرسل والصحابة والأولياء والأتقياء، الأحياء منهم والأموات إنك لا تفلت من يدى . سوف ترى . سأحل بك أشد عقاب رأته العيون وسمعت عنه الآذان من عهد آدم ونوح . ما الذى تخفيه فى يدك ؟ تكلم . لماذا غادرت مكانك خفية . ما الذى بيدك ؟

﴿ العريف والصبي ﴾

فصاح الطفل وقد رأى العريف يهمّ بأن يهوى بعصاه على جسده الناعم .

— حلاوة . حلاوة . والنبى ياسيدنا حلاوة .

فابتسم العريف وقال :

— صفحت عنك لانك قلت الحقيقة .

وأمر بحل وثاقه . وأخذه على ناحية وهمس فى أذنه وهو يتلفظ وقد سال اللعاب من فيه :

— ما الذى معك . حلاوة . هيه حلاوة .

— نعم حلاوة .

— هات حته

فأعطاه الطفل الحلاوة . والتهمها العريف وهو يبتسم . وعاد الطفل لمكانه . وخرجتُ من الكتّاب بعد أن شاهدت فيه درساً من أخلاق السوقة لا أظن أنى أراه فى مكان آخر ؟

(٢٣ مايو سنة ١٩١٨)

عرس ومأتم

عرس ومأتم

شارع (ال . . .) شارع قديم جداً أنشئ فى عهد أمير مصر سعيد باشا وبقى على حاله الأول الى يومنا هذا . ولعل السر فى ذلك وجوده فى حى قديم بعيد عن الأحياء الاوربية . وهو كالشوارع القديمة يجمع بين القصور الكبيرة تحوطها الأسوار العالية والبيوت الصغيرة الحقيرة التى لا تؤوى تحت سقفها الا المساكين . فى هذا الشارع قصر كبير لأحد بشوات مصر المعروفين بالجاه والحسب والثروة . ولهذا الباشا أربعة من الأولاد الذكور واثنان من الاناث يعيشون عيشة هادئة مرضية وينعمون بلذات الحياة ومسراتها .

أراد الباشا أن يزوج ابنه الاكبر فخطب له ابنة تساويه مقاماً ومالا . وأقام الأفراح فى قصره أربعين ليلة متوالية حتى ملّت النفوس سماع النغمات ورؤية التعاليق والانوار

عرس يجمع أربعين عرساً ! ! ! تلك لعمرى مسألة عريضة طويلة حوت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت . شىء كانت له ضجة هائلة فى ذلك الحى بل كان حديث الناس فى كل مكان . .

***

وفى ذلك الشارع أيضاً بيت حقير لحوذى من أصحاب العربات «الكارو» له ولد مريض أربى على الثامنة عشرة لازم الفراش .

أربعين ليلة وافقت ليالى العرس . كان الباشا يضحك وكان الحوذى يبكى . كان الباشا يعد معدات العرس ويصرف من أجل ذلك عن سعة وكان الحوذى يبيع أثاث بيته ليشترى الدواء لابنه المسكين . كانت النغمات تطن فى آذان الباشا فينشرح لها صدره وتنبسط نفسه وكانت أنفاس الابن تقع فى قلب الوالد فتقطع البقية الباقية منه .

وفى صبيحة اليوم الواحد والاربعين زاد على أهل القصر الكبير شخص وهو زوجة الابن الاكبر، ونقص من أهل البيت الحقير شخص هو ابن الحوذى البائس .

أصبح الزوج ينعم مع زوجته بما لذ وطاب ، وأصبح الشاب الفقير جثة هامدة تبللها دموع أبيه المسكين .

ذهب الحوذى لقصر الباشا باكى العين كاسف البال خاوي الوطاب وسأله أن يعطيه ما ينفقه فى سبيل دفن ولده فامتنع الباشا معتذراً بأنه أنفق المال الكثير أربعين ليلة متوالية لزواج ولده .

إن ذلك شديد هائل على كل نفس حرة أبية .

(٩ يونيو سنة ١٩١٨)

رمضان في قهوة ماتاتيا

رمضان في قهوة ماتاتيا

خلف المحكمة المختلطة وأمام بنك الكريدى وفى كتف دكان مدكور وقفت قهوة ماتاتيا وقفة الرجل الديمقراطى متهللة الوجه باسمة الفم تجمع من الناس الغنى والفقير والرفيع والوضيع والمتكبر والوديع .

ما أجمل قهوة ماتاتيا وهى تنظر لحديقة الازبكية نظرة الهازىء تقول لها وهى تبتسم : « أنت شاسعة الارجاء كثيرة الاشجار طويلة الطرق والدروب وأنا صغيرة وحقيرة وإن شئت فأنا أيضا غير نظيفة ولكنى أضم تحت لوائى عدداً من الناس لم يطأ أرضك بعد ربعه ولا خمسه فأنا أكبر منك مكانة وأرفع مقاما » .

ماأجمل قهوة ماتاتيا وقد وقف على كل باب من أبوابها رجل اسرائيلى أمام خوانه الصغير بعد أن وضع عليه قدرة الفول المدمس يحف بها البصل والخيار والقوطة الحمراء والفجل والكرات .

ما أجمل قهوة ماتاتيا وقد جلس فيها الشاب ذو الوجه الجميل والشعور المسدلة والقد النحيف واللباس النظيف ينتظر مرور الناس ليسرق من جيوبهم باسم (حرفة) الأدب والشعر أو باسم (اللاحرفة) الدراهم التى أعدوها للفقراء والمساكين . بل ما أجمل

قهوة ماتاتيا وقد جلس فيها أيضاً الصحفى صاحب الجريدة الأسبوعية الشهيرة التى تصدر لسب الناس وانتقادهم بلا ذنب ولا جريرة .

بل ما أجمل النغمات الموسيقية فى قهوة ماتاتيا ، نغمات (أحجار الطاولة) ممتزجة بأصوات بائعى أوراق اليانصيب . ما أجمل قهوة ماتاتيا إذا جلستَ فيها وأتاك أحد السماسرة يعرض عليك شراء منزل أو بيع قطعة من الارض .. الخ . بل ما أجملها أيضاً وقد جلس فيها كُتّاب المحامين يناقشون أصحاب الدعاوى ، وصغار الممثلين يتحدثون فى شتم إخوانهم ورؤسائهم . والاجمل من كل ذلك أن ترى قهوة ماتاتيا وهى تنظر بعين الغطرسة والعجرفة للخيم الصغيرة والكراسى المهشمة التى أعدها كاتبو العرضحلات لأنفسهم ولزبائنهم على رصيف المحكمة المختلطة .

كل هذا جميل . هذه مناظر من مناظر الحياة تسترعى نظر الكاتب الذى يكره الجلوس فى سولت وجروبى والكونتيننتال ، والذى يحب أن يرى بعينه من غرائب الحياة مايجرى فى أمثال قهوة ماتاتيا .

كل هذه المناظر الحيوية يراها الرائى كل يوم ولا يعبأ بها ولكنه إذا مر على القهوة فى شهر رمضان رأى مناظر أخرى تستوقف نظره . أربعة مناظر جديدة من مناظر التمثيل ليست من المناظر

الاولى ولكنها أكثر منها غرابة .

المنظر الاول منظر رجل من لابسى الجبة والقفطان ناعس الجفون جهم المحيا ممسكا بمسبحة طويلة عريضة يقتل بها الوقت ، هذا هو منظر الشيخ الصائم الذى ضاق فى عينه منزله فأتى ليقضى وقته فى القهوة بلا أجر ولا ثمن .

والمنظر الثانى منظر رجل مثله أقل منه عبوسة ونوماً ، يظهر أمام الناس بمظهر الصائم حتى إذا جاع دخل القهوة سراً وانزوى فى ركن من أركانها يشرب البيرة ويأكل الفول . هذا هو منظر الرجل الصائم جهاراً والفاطر سراً .

والمنظر الثالث منظر الرجل الفقير الضعيف المريض الذى أتى القهوة ليستنشق هواء حديقة الازبكية ويشرب فنجان قهوة وكوبة ماء وكل هذا بقرش تعريفة فقط .

هذا الرجل أجبرته ظروف الحياة على الافطار فلم يخش الناس وشرب القهوة والماء أمامهم وهو يقول لنفسه : (الله يعلم أنى مفطر فلتعلم أيضاً الناس لأنى لم أفعل مايغضب الله) .

والمنظر الرابع منظر شاب مصرى لايتكلم إلا الأفرنسية أو الأنكليزية مملوءة بالاغلاط المضحكة ، ولا يلبس إلا اللباس الجميل

ولا يمشى إلا مشية الاعجاب والتبختر. وإن ضحك كانت ضحكته نسائية تستلفت أنظار الرجال قبل النساء. وإن تكلم سالت من فمه الرقة وادعى أنه ممن تتفانى النساء فى محبتهم. يجلس هذا الشاب على قهوة ماتاتيا واضعاً رجله اليمنى على رجله اليسرى خالعاً طربوشه وممسكا بيمينه كأس الوسكى أو الكونياك يحتسيه جرعة جرعة. هذا هو منظر من لايخشى الله ولا الناس، منظر المتفرنج، منظر العضو الأشلّ فى جسم الأمة المصرية ؟

ولكن المرأة لم تخلق

لهذا الهناء فى مصر

ولكن المرأة لم تخلق لهذا الهناء

فى مصر

ما أجمل الصيف فى رمل الاسكندرية وما أجمل رمل الاسكندرية فى عين المصطاف . الارض صفراء والحدائق خضراء ومياه البحر زرقاء وللأمواج زئير تألفه النفوس كأنه موسيقى الصيف ، والقمر فى منتصف كل شهر أشعته زاهرة تنعكس على وجه الماء فتبدو للعين فضية اللون . والاستحمام فى ماء البحر كل صباح يعيد للنفس نشاطها وللقلب طمأنينته وراحته . كل هذا جميل وأجمل منه أن نخرج من منزلك عصر كل يوم للتنزه فتصادف فى طريقك صديقاً تأنس لحديثه فتسيران الهوينا معاً تنظران لجمال الطبيعة وتناجيان قدرة الخالق وعظمته تبدو فى صغائر الامور وكبائرها فوق هذه الرمال .

أخرجُ فى العصر للتنزه ساعة ثم أعود لمنزلى قبيل المغرب . ففى ذات يوم خرجت للتروض كعادتى وبينما أنا سائر فى طريقى لمحت رجلا يقرب منى من بعيد . وشعرت برجل آخر يسير خلفى . ثم اقترب الرجلان وسلما على بعض وهما يبتسمان ووقفا هنيهة يتحادثان ثم سارا معاً أمامى وهما يعتبان على بعضهما لطول غيبة الواحد عن

الثانى . فما شككت فى أنهما صديقان التقيا فى هذا الطريق بعد فراق طويل . ثم دلفت لمنزلى وتركتهما معاً ولم أعلم عن أمرهما شيئاً الا عصر اليوم التالى .

خرجتُ فى اليوم التالى للتنزه كالعادة وسرت فى الطريق التى وطئتها قدماى بالأمس فاذا بى أرى رجل الأمس يقترب منى وكانت تسير بجواره غادة ماشككت فى أنها زوجته . وشعرت خلفى أيضاً بالرجل الثانى يسير مع سيدة ما شككت أيضاً فى أنها زوجته . ولما تلاقى الجمعان انفصل كل من الرجلين عن زوجته ووقفا من بعيد ينظران للأرض دون أن يجسر أحدهما على رؤية الآخر . أما الزوجتان فقد كانتا على ضد ذلك . وقفت كل واحدة منهما تحادث الاخرى وهى لامعة الصفحة باسمة الفم ثم انفصلتا عن بعضهما وسارت كل واحدة بجانب زوجها متخذة وجهتها لمنزلها .

ياللعجب . بالأمس وقف الرجلان يعتب الواحد منهما على الآخر لطول غيبته ثم سارا جنباً لجنب يتحدثان ويضحكان ، واليوم وقف كل واحد منهما بعيداً كالصنم لا يتكلم ولا يتحرك كأنه لم يكن بين الأول والثانى ودّ وصداقة . كل هذا لانفعله احتراما لنسائنا بل احتراما لتلك الخرقة التى يضعنها على وجوههن ، والتى

نسميها بالبرقع . حرام أن يكلم الصديق صديقه اذا قابله مع زوجته ظنا منه أن في ذلك ما يحط من قدر الزوجية إذ للرجال عالماً منفصلا عن النساء . ألم يكن أحسن من ذلك وأولى أن يقف الأربعة ليتحادثوا معاً ويتنزهوا معا وعلى الأخص اذا كان الرجل صديق الرجل والزوجة صديقة الزوجة . أي حائل يحول بينهم والى متى تبقى تلك الحال السيئة ونحن فى غنى عنها .

ولكن المرأة لم تخلق لهذا الهناء فى مصر ؟

(٤ يوليو سنة ١٩١٨)

لبن بقهوة
ولبن بالتراب

لبن بقهوة ولبن بالتراب

صباح اليوم ، بعد أن صحوت من نومى ولبست ملابسى ، أتتنى الخادمة بالفطور لآكل ثم أخرج . ألقيت نظرى على الطعام فوجدته مختلف الألوان من جبن وزيتون وبيض ولبن وقهوة . وكانت لى شهية للأكل فأكلت من الجبن والزيتون والبيض حتى شبعت ثم نظرت للبن والقهوة وقلت لنفسى : (إنى أشرب اللبن مع القهوة صباح كل يوم ولقد شبعت من غيره اليوم وليس فى مقدورى أن أضيف الى ما فى معدتى من اللبن شيئاً) . وقمت لأرتدى ملابسى وإذا بى أرى كلبى يبصبص لى بذنبه فأفرغت ما كان فى فنجانى من اللبن فى وعاء الكلب وتركته والوعاء .

ركبت ركاب الرمل حتى الاسكندرية وقضيت بعض حوائجى . ثم أردت الرجوع فانتظرت فى المحطة قليلا مترقباً وصول القطر الذى يقلنى حتى المحطة التى أسكن فيها . وإذا بى أرى رجلا يبلغ الخمسين يسير وراءه طفل ماشككت فى أنه ولده ، يحمل معه قِدراً مملوءاً بسائل لا أعرفه . وحاولا ركوب قطار كان قد غادر المحطة وابتعد عنها قليلا . واذا بالولد يهوى على الأرض والأب يهوى فوقه ولحسن حظهما لم يصابا بسوء . ولكن القِدر انكسر وسال

ما فيه على الأرض وكان لبناً ناصع البياض. فنظر اليه الرجل نظرة ملؤها الأسف وكادت الدموع تسيل من عينيه . ثم سار فى طريقه مع ابنه وكأنه تفاءل شراً مما حدث فعاد من حيث أتى .

لم ألبث فى طريقى قليلا حتى رأيت طفلين من أطفال شوارع الاسكندرية يتسابقان لمكان الحادثة وكانا لابسين من الملابس ما لا يحجب من جسديهما الا القليل ، عاريى الرأس حافيى الاقدام تترا كم على جبهتيهما وملابسهما القاذورات والأوساخ ، تسابقا لمكان الحادثة ولما وصلا اليه ركعا على الأرض ولبثا يلحسان اللبن وكان لبناً بالتراب لا بالقهوة .

يالله أترفض نفسى فى هذا الصباح فنجان لبن بقهوة وترضى نفسا هذين الفقيرين لبناً ممزوجاً بالتراب ..!

(٢٥ يوليو سنة ١٩١٨)

سر من أسرار
تأخر المصريين

سر من أسرار تأخر المصريين

يسكن بجوار منزلنا رجل أشيب معمم ذو ثروة كبيرة . إذا مشى فى طريقه ينبعث من وجهه جلال ووقار . واذا نظر اليك نظرة اختبار واستفسار قرأتَ فى عينيه الطيبة ولا أغالى إذا قلتُ السذاجة . هذا هو جارنا الجديد المحبوب صاحب المال والبنين والبنات والثروة والجاه والفضل الكبير .

مضى عليه فى الحى الذى نسكن فيه أربعة أشهر . ثم جاء شهر رمضان فاذا بى أراه من نافذة غرفتى يجلس مع أولاده فى غرفة من غرف داره ليقرأ البخارى . وإذا بى أرى شيخا آخر من الذين يطرقون بيوت الناس كل يوم جالسا بجواره يسمع أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ويهز رأسه استحسانا حتى اذا تعب صاحب الدار من القراءة أمسك شيخنا الجديد بالكتاب وابتدأ في تلاوة الأحاديث .

جميل ذلك المنظر ، منظر الشيخين والاولاد الصغار يتلون ويرددون أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم . وفي ذلك عبرة لمن يعتبر وذكرى لمن يتذكر . ثم زارنا الشيخ الآخر ذلك الذى اعتاد الدخول فى بيوت الناس كل يوم فجلستُ معه ساعة من الزمن وسقت معه الحديث فى مواضيع شتى الى أن تكلمنا عن قراءة البخارى فقلت له :

﴿نحن نقرأها ياولدى على بركة الله﴾

— أرى سيدى الفاضل يجلس كل يوم مع جارنا لتلاوة أحاديث النبى .

— نعم يا ولدى وعلى بركة الله .

— قراءة أحاديث النبي ذات فوائد عظيمة . لعلكم وجدتم فيها شيئا يعزز بعض آراء النحويين .

— نحن نقرؤها ياولدى على بركة الله .

— ألم تجدوا فى معانى أحاديثه نظريات تتفق أو تدحض بعض نظريات علم الاجتماع .

— نحن نقرؤها ياولدى على بركة الله .

— ألم تجدوا فيها شيئا من سياسة الامم .

فنظر الرجل نظرة حيرة واستغراب وأمسك بلحيته وتردد قليلا ثم قال :

— نحن نقرؤها يا ولدى على بركة الله .

ثم ودعنا وانصرف .

* * *

وانقضى شهر رمضان وكدت أن أنسى ذلك اللقاء الى أن ساقت الظروف لدارنا مستشرقا من مستشرقى أوروبا ، شيخا

أشيب وقوراً حليم الطبع لامع الصفحة . قدم الى مصر للبحث عن كتاب عربى قديم فى أمراض العيون بحث عنه فى جميع مكاتب العالم فلم يجده فى غير مكتبتنا

جلستُ مع الرجل وحادثته ملياً وقلت له :

— شكراً لك ياسيدى لأنك بطبع هـذا الـكتاب تخدم الشرق أجمع

— بل إنى أشكركم بالسماح لى بطبعه .

— إنك تظهر مآثر العرب وتنشر علومهم الدفينة .

— أجل ولـكنى أيضاً أظهر للعالم الانسانى كيف كان حال الطب فى ذلك العهد ولهذا أخدم تاريخ هذا العلم ولعلى أوفق لذلك .

وودعنا الرجل وانصرف حاملا الـكتاب وأتانا به بعد أشهر معدودة مطبوعاً طبعاً متقناً جميلا .

***

لعلى بكتابة هذه الخاطرة أشرح لأبناء وطنى سراً من أسرار تأخر المصريين .

(١٩ سبتمبر سنة ١٩١٨)

هنا وهنـاك

هنا وهناك

ما أجمل جبل السنسير بضواحى ليون ، جبل أخضر اللون تكتنفه تلال تكسوها الأشجار ومروج تقطعها الطرق . وعلى قمته بَنَت يدُ ناسك متقشف بيتاً صغيراً يقضى فيه حياته ، تحوطه حديقة غرس أشجارها بيده . هناك تشرق عليه الشمس وهناك يعم الظلام بيته وهناك اعتزل العالم وهناك سيموت . وبين هذه الجبال نزلت منذ ثمان سنوات فى أسرة افرنسية لأقضى بينهم ثلاثة أشهر أدرس فيها اللغة الافرنسية . وكان بيتهم غير بعيد عن الجبل وكنت أشرف منه على مدينة ليون فتتراءى لى فى ظلام الليل بمصابيحها اللامعة . أيام جميلة تعيدها الذكرى لنفسى ، وما أجمل الذكرى والانسان بعيد عن هذه البلاد التى قضى فيها جزءاً من عمره لاقى فيه السعادة والصفاء . قلت إنى كنت نزيل اسرة إفرنسية مكونة من رجل وزوجته وشقيقته وولدين له يذهبان صباحاً الى المدرسة ويعودان منها قبيل الغروب فيلعبان ويمرحان فى الحديقة الى أن يدنو الليل فيدخلان غرفة المطالعة ويقضيان مع عمتهم ساعة من الزمن قبل العشاء يعيدان فيها درس اليوم ويدرسان درس الغد ،

وأبيح لى أن أشهد هذه الدروس لتعتاد اذنى سماع النغمة الافرنسية . ففى ذات ليلة رأيت فى يد الطفل الصغير ، وكان لا يبلغ من العمر الا ثمان سنوات ، قطعاً من الحجارة يدرس أسماءها مع عمته . ورأيتُ الطفل الكبير ، وكان يبلغ الثانية عشرة من عمره ، يمسك بكتاب فى يده مكتوب عليه هذا العنوان : (مبادىء علم الفلسفة) . ولبثاينا قشان مع عمتهما ثم قمنا سويا للعشاء ومكثنا نتسامر بعد ذلك ثم دخل كل الى غرفته لينام .

سبحان ربى لقد كنتُ أبلغ التاسعة عشرة بل كنت على أبواب العشرين وكنت من حملة الشهادة الثانوية ولكنى كنت جاهلا بعلم طبقات الأرض ومبادىء الفلسفة .

أما الطفل الافرنسى البالغ من العمر ثمان سنوات او اثنتى عشرة سنة فهو خبير بعلم طبقات الأرض وبعلم الحيوان والنبات والمنطق وعلم النفس . لقد كنت أمام هذا الطفل الصغير كالتلميذ الجاهل أمام الاستاذ المتعلم

يحمل الشاب منا الشهادة الثانوية فأن كان من القسم العلمى جهل علمى التاريخ والجغرافيا ، وان كان من القسم الأدبى جهل الرياضيات والكيمياء والطبيعة . أما علم طبقات الأرض والحيوان

والنبات والفلسفة فلم تقرر بعد فى برنامج المدارس الثانوية ولا ندرى السبب فى ذلك .

نكتب هـذا لوزارة المعارف ونحن نأمل أن تصلح فى الغد ما أهملته بالأمس .

(٣١ اكتوبر ١٩١٨)

العاشق المفتون

بالرتب والنياشين

العاشق المفتون

بالرتب والنياشين

(من رسائل مجبور افندى)[1]

خطاب من كاتب الى رجل لا يعرفه

ياصديقى العزيز .

اسمح لى أن أناديك بالصديق العزيز مرة فى كل عام وان كنت لم أسعد فى حياتى الماضية ولن أسعد فى حياتى المقبلة بمعرفتك، ومعرفتك أمر هام جداً ، بل هى شرف عظيم لكل من يجد فى قربك سعادة لنفسه وراحة لضميره المعذب . ولكنى لا أكتمك، وان كانت صراحتى تؤلمك ، أنى لا أود ولن أود أن تسمح لى الظروف بمعرفتك بل برؤياك . . . .

لماذا إذاً أخاطبك فى العام مرة واحدة ؟ لماذا أكتب اليك هذا الخطاب وبينى وبينك مسافة ما بين الأرض والسماء ، مسافة طويلة جداً ، ولكنها لاتوجد الا بين نفسى ونفسك ! أما جسمانا

---

(١) كان فى عزم الفقيد أن يكتب سلسلة مقالات تحت هذا العنوان ولكن لم يتم منها الا هذه القطعة .

فقريبان وربما التطا فى الطريق مرة واحدة لانا نعيش سوياً على صعيد واحد ، هو مصر . اذاً لماذا أكتب ؟ انى لا أسائل نفسى لأنى أعرف السبب وسأذكره لك فربما وجدتَ فيه عزاء لنفسك المضطربة وراحة لضميرك الهائج . ولكنى لا أريد أن نتكلم سوياً الا اذا اعتقدتَ أنى صريح فيما أقول وأنه لا يحملنى على مناقشتك الا أمر واحد هو حبى للناس . ومن هذا الحب تولدتْ فى قلبى عاطفة غريبة نحوك ، عاطفة تكونت من عصير الشفقة والرثاء . وما أجمل الصراحة التى يتساقط من نورها الوضاح شعاع الشفقة والرثاء .

أنت بلا شك لا تغضب لأنى صريح ولكنى أخشى أن يسوؤك رثائى وشفقتى . لهذا أود من صميم قلبى ان تتنازل عن كبريائك . . . .

عفواً أيها الصديق العزيز ! عفواً ! لقد أخطأتُ مرة ثانية وقلتُ إنك من المتكبرين المتغطرسين . ولكن ما الذى يضرك . وهل يسوءك أن أصفك بهذه الصفة وانت ممن يجدون فى الكبرياء والابهة لذة لا تقدر ؟ اظن اذاً أنى لم أغضبك مرة ثانية وانى لم أخطىء بالمرة . فاسمح لى اذاً أن أقول لك انى أود من صميم قلبى أن تتنازل عن كبريائك فى غضون تلك الساعة الزمانية التى نود أن نتحادث فيها سوياً وان لا يسوءك انى اشفق عليك وارثى لحالك .

اذا فلنبدأ الحديث على الشروط الماضية . وحديثى معك يبدأ هكذا :

أنت أيها الصديق أحد رجلين ، فاما أن تكون من أعيان القاهرة ، تلك الجماعة التى تسكن القصور الشامخة تحوطها الحدائق الغناء ، والتى تركب السيارات ذوات الابواق المزعجة ، والتى اذا تكلمت تأنت فى كلامها ووزنت كل حرف بميزان الأبهة والكبرياء ، والتى تلبس الملابس الغالية وتأكل الطعام الفاخر ، والتى تجد فى التبختر ، اذا سارت ، باباً جديداً من أبواب الظهور بين الناس ، والتى اذا زارت لاتزور الا من له صلة بكبار رجال الحكومة ولهم تحنى ظهورها ، وتمد للرق رقبتها ، أما لغيرهم فتظهر بمظهر المتعجرف الشامخ الذى اذا جلس التحف بجلباب الكبر واذا سار امتطى ظهر انيه .

إما أن تكون هذا الرجل واما أن تكون الرجل الآخر ، أى من أعيان الريف الذين اذا أكلوا فى منازلهم اكتفوا بالعيش والفتة واذا زارهم المأمور ذبحوا له الخروف يتلوه الخروف ، والذين ينامون فى غرفة ضيقة ويلتحفون بملابسهم ولكنهم يعدون فى قصرهم لرجل الحكومه غرفة جميلة وسريراً حريرياً ولا يستنكفون من أن يقفوا فى خدمته وقفة الخاضع الذليل ولكنهم يستنكفون أن يسمحوا

لزوجاتهم وأولادهم أن يأكلوا معهم .

إما أن تكون الرجل الأول أو الثاني . وسيان عندى أن تكون أحد الرجلين لأن نفسيكما نشأت من نبع واحد، فأنتما شخص واحد . دع عنك فروق المعيشة فما هى الا نتيجة الجو الذى عشتما فيه . ولا يهمنى من أمركما إلا شيء واحد خضوعكما لمن فى يده القوة واستنكافكما من معاشرة الآخرين .

الآن قد انتهيت من وصفك ويخيل لى أنك توافقنى عليه لأنك عاهدتنى قبل محادثتك بتنازلك عن كبريائك وباعتقادك أنى أصارحك القول . والآن فلنتحدث قليلا لأعلمك لماذا أخاطبك فى العام مرة واحدة . أظنك لا تنكر ياصديقى أنك تقضى العام كله ماعدا عدة أيام قلائل وأنت مستطار الفؤاد حزين النفس ، تقوم مبكرا من نومك وفى رأسك شاغل كبير يقطع عليك أحلامك ويصور لك الحياة فى صورة قبيحة لاترضاها لنفسك . أليس الأمر كذلك ؟ ذلك الشاغل هو قيمتك فى أعين الناس . أنت تود أن تكون قيمتك كبيرة جداً ، تريد أن يكون مقامك بين نظرائك أكبر مقام تسمح به الهيئة الاجتماعية فى مصر ! ولكنك مع الاسف تجهل ماهية القيمة الأنسانية بل ربما كنت تعرف ماهيتها ولكنك تتغافل عنها لانك لاتجد فيها الطريق السوى الذى

تسوغ لك كفاءتك السير فيه. لهذا تسير فى طريق آخر آملا أن تصل به الى العرش الذى تطمح نفسك لارتقائه . وما نتج هذا الا من جهلك لانك بلا نزاع لم تنظر للحياة بمنظار الحقيقة ولم تلبس بعد لباس الحقيقة ولم تشرب أيضاً من ينبوعها الطاهر . وليس الذنب ذنبك أيها الصديق العزيز لانك نشأت فى جو لم تنل فيه من العلوم والآداب قسطاً وافراً . فانت بطبيعتك جاهل . هذا ظل قلبك مقفلاً أمام نور الحقيقة ، ذلك النور الذى يتغلغل فى حنايا القلوب فيضىء ظلماتها القاتمة . اذاً أنت من الحزب المصرى الذى يرى قيمة الرجل بالرتبة التى ينالها أو فى النيشان الذى يحلى به صدره . وياليته يرى ذلك فحسب بل يمتد نظره الى قاع تلك الهاوية فيرى أن ليس من العار على الرجل أن يفعل كل ما فى وسعه وأن يبرر كل واسطة للوصول لغايته فأنت اذا من هذا الصنف ، أى إنك تود رفعة المقام فى الحياة دون أن تفعل شيئاً يذكر تستحق عليه رفعة المقام . أظنك توافقنى أيضاً على ذلك . وأظنك أيضاً تقضى العام كله وأنت تزور من له صلة بمن فى يده تدبير الأمور . تزوره كلما سنحت لك الفرصة فتجلس بين يديه وقد جلس الكبر بين عينيه وتمشّى الذل فى شرايينك فأحنيت رأسك وتذللت فى السؤال والكلام والسلام ثم تعود الى بيتك وتجلس على كرسيك جلسة

الكبرياء والعظمة وتفكر فيما فعلت .

انى أقسم بكل عزيز عندى فوق الأرض وتحت السماء أن ضميرك لا يلبث أن يوبخك وأنت ترى فيما فعلت ما يحمر له وجهك وترتعد فرائصك خجلا . ولكنك تنظر الى يمينك فترى صديقك فلان حائزاً لرتبة باشا وأنت لم تحز بعد إلا رتبة بك . ثم تنظر لشمالك فترى صديقك الآخر حاز نيشاناً وصدرك ما زال خالياً من تلك الأوسمة الجميلة . ترى ذلك بعينك فيزول احمرار وجهك ويحل محله الاصفرار ، اصفرار منشؤه الغيظ والحسد . وتظل ركبتاك ترتعدان ، ارتعادا ليس منشؤه الخجل بل الغضب والحقد . فتنسى ما أنبك به ضميرك وتقوم من مكانك وتركب عربتك لزيارة رجل آخر ممن يتصلون بأولى الحل والعقد . وتظل العام كله وأنت لا يقر لك قرار . فاذا دنا الميعاد وجاء الوقت الذي يتكرمون فيه على الناس بالرتب والأوسمة أكثرت من زياراتك وقضيت لياليك وأنت لا تنام ، يديك الأمل ساعة ثم لا يلبث أن يبعدك اليأس . ثم ماذا ؟ تظهر النتيجة ثم ترى نفسك قد سقطت فى الامتحان . ويلاه وألف مرة ويلاه . ويلاه لنفسك لانك لم تنل غايتك ، وويلاه لزوجتك لانك تحرم عليها الطعام ، وويلاه لأولادك لأنك تشبعهم ضربا ، وويلاه لخدمك لأنهم يظلون مدة وهم مهددون بالطرد . ثم ترجع

لنفسك وتسألها لماذا فاز غيرك ولم تفز أنت فلا تهتدى لشيء . ثم تسأل الناس وتعود لزياراتك الى أن يساعدك الحظ وتنال ماتريد . فاذا نلت الرتبة أو النيشان تمشّى السرور في نواحيك وهزك الفرح هزة تخشى أن تضر بصحتك . ثم تمر الأيام وتنسى كل ذلك وتنظر الى يمينك والى يسارك فترى الصورة التى رأيتها قديماً ، ترى قوماً آخرين من أصحابك هم أعلا منك رتبة أو حازوا نيشاناً لم تحزه أنت فتعود الى شاغلك القديم وتكرر الزيارات والخضوع ، أي انك تظل طول حياتك معذبا مكروب النفس حزين القلب . فوا أسفاه لك ! ومن تلك الحياة المنغصة التى ارتضيتها لنفسك.

ولعلك بعد هذا الحديث الطويل توافقنى بل تشكرنى لأنى أشفق عليك وأرثى لحالك . واسمح لى أيضاً أن أقول لك — وان كنتُ أشك فيما سأقوله — ربما يجول بخاطرك الآن هذا السؤال : « اذاً ماهو الطريق الذى اذا سرتُ فيه استراح ضميرى وهدأت ثائرة نفسى ؟ . ماهو هذا الطريق أيها الصديق ؟ » سأخبرك عنه . واعلم أن من أجل هذا السؤال أكتب اليك هذا الخطاب . أنت لستَ من العلماء لأطرق معك باب العلم وأقول : « اقرأ وألف واخترع » . ولست من رجال الصناعة فأقول لك : « اعمل في سبيل رواج صناعة بلادك » . ولست من رجال الادب فأقول لك . « أى

كتاب كتبت ؟ » . ولست من التجار ولا رجال الحكومة ولا ولا . . . . ولكنك من الاغنياء . أنت من الرجال الذين يكنزون في بيوتهم القناطير المقنطرة من الذهب والذين اذا مشوا أو ركبوا قال عنهم الناس « هذا هو الغنى فلان » . أنت من هؤلاء أيها الصديق وأنا لا أطالبك بصرف مالك وتبذيره . كلا وألف مرة كلا . أنا أودأن يظل مالك فى حوزتك ولكنى أرجوك أن تتنازل عن بعض ايرادك لمن يستحقه . بلادك أيها الصديق محتاجة لبعض مالك لينفق في سبيل الخير . أمامك الفقراء يودون أن يجدوا أمامهم مدارس يرسلون اليها أبنائهم بلا أجر . وأمامك الشيوخ الذين أقعدهم المرض والفقر والشيخوخة عن العمل . هم في حاجة لملجأ يلم شتاتهم ويدفع عنهم ذل السؤال . وأمامك اذا سرت فى الطريق على قدميك الأطفال المتشردون الذين بأحسانك ينصلح حالهم فيعودوا بالخير على أمتهم . وأمامك المرضى الفقراء فهل لك أن تنشىء لهم مستشفيات ، وفى طاقتك أن تفعل ذلك ؟ هذا هو السبيل السوى الذى تستطيع أن تسير فيه بأقدام ثابتة .

أتعرف أيها الصديق ماذا يكون من أمرك اذا فعلت ذلك ، على شريطة أن لاتزور أحداً ممن كنت تزورهم وأن لاتحنى رأسك

للذل ولا تمد رقبتك للرق ، أتعرف أيها الصديق ماذا يكون من أمرك ؟ انى سأقول لك شيئاً ستندهش له وأخشى أن لاتصدقنى . ولكنى سأقوله على كل حال . انى أؤكد لك أيها الصديق أن تلك الرتبة التى كنتَ تسعى لها ستسعى هى اليك وان النيشان الذى كنت تفتش عنه فى كل ساعة سيفتش عنك بنفسه . وسوف يقول الناس : « ان الرتبة والنيشان تتشرفان بك بدل أن تتشرف بهما » .

ثم بعد ذلك ، بعد هذا الكلام الطويل بينى وبينك ، مازلت أحس بدافع يدفعنى لأن أقول لك شيئاً آخر ولكني أفضل أن لا أقوله خشية أن تنفر منى وتظن أنى واهم أو أنى أخبط خبط عشواء . أأقول أم لا أقول لاأعلم ؟ دعنى أفكر ! وأخيراً قد استقر قرارى على أن أقول هذا الشيء . فان كنتَ حي الضمير صدقتنى وشكرتنى وربما قبلتنى قبلة أخوية طاهرة . أما اذا كنت ممن لاينفع معهم الكلام فانى لاأخسر شيئاً كبيراً بما سأقوله بعد ما أتعبت نفسى فيما قلته لك . اعلم ياصديقى انك بعد ان تقوم باحدى الاعمال التى طلبتها منك ستشعر بشيء غريب ، بشعور جديد ، براحة في ضميرك توحى اليك بأن تعتقد أن خير جزاء وأن أكبر مقام هو

تلك الراحة التى تشعر بها عند ماترى عينك الاطفال الذين أصلحت حالهم والشيوخ الذين آويتهم والمرضى الذين شفيتهم .

عندها تنسى رتبتك القديمة ونيشانك القديم وتعرف أن الأحسان هو أعظم رتبة وأكبر نيشان . وأن الرتب والأوسمة ماهى الا أوهام .

(سنة ١٩١٧)

﴿ تم الكتاب ﴾

﴿ جميع الحقوق محفوظة للناشر ﴾

محمود تيمور

المطبعة السلفية - ومكتبتها
لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح ضلان

القاهرة سنة

١٣٤٥ ، ١٩٢٧

فهرس الكتاب

	صفحة
كلمة للناشر	٣
موجز عن حياة المؤلف واعماله	٧
ماتراه العيون	١٥
١ في القطار	١٥
٢ عطفة (ال . . .) منزل رقم ٢٢	٢٩
٣ بيت الكرم	٣٩
٤ حفلة طرب	٥١
٥ صفارة العيد	٦١
٦ ربى لمن خلقت هذا النعيم	٧١
٧ كان طفلا فصار شابا	٨١
خواطر قصصية	٨٩
٨ ريان يافجل	٨٩

صفحة

٩ سارق وسارق ٩٥

١٠ للفقراء مجاناً ١٠١

١١ درس في كتاب ١٠٧

١٢ عرس ومأتم ١١٣

١٣ رمضان في قهوة ماتاتيا ١١٧

١٤ ولكن المرأة لم تخلق لهذا الهناء في مصر ١٢٣

١٥ لبن بالقهوة ولبن بالتراب ١٢٧

١٦ سر من أسرار تأخر المصريين ١٣١

١٧ هنا وهناك ١٣٧

١٨ العاشق المفتون بالرتب والنياشين ١٤١

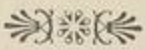

فهرس الصور

صفحة

المرحوم محمد تيمور		٤
الشيخ المعمم	(رسم حسين افندي فوزي)	١٧
الطالب الريفى	» » »	١٩
الافندى المعجب بنفسه	» » »	٢٠
الشركسى	» » »	٢١
العمدة	» » »	٢٣
المطاردة الغزلية	(رسم عباس افندى كامل)	٣٥
محمد بك مجدى	(رسم حسين افندى فوزي)	٤٢
المغنى الأول	» » »	٥٤
المغنى الثاني	» » »	٥٥
المغنى الثالث	» » »	٥٧
من أجل صفارة العيد	» » »	٦٨
جنة المحبين	» » »	٧٩
محجوب ومربيته	» » »	٨٧
ريان يافجل	» » »	٩٣
الشيخ احمد يقبض عليه البوليس	» » »	٩٩

العريف والصبي (رسم حسين افندى فوزي) ١١٠
نحن ياولدى نقرأها على بركة الله » » ١٤٣

اطلبوا مؤلفات محمود تيمور

الشيخ جمعه

وأقاصيص أخرى

الطبعة الثانية منقحة ومزينة بالصور ظهرت حديثاً في عالم المطبوعات.

عم متولى

وأقاصيص اخرى

لم يبق منه الاَّ بضعة نسخ قليلة وسيعاد طبعه عن قريب

الشيخ سيد العبيط

وأقاصيص أخرى

قرب أن ينفذ وسيعاد طبعه . وهو كتاب مصدر بمقدمة طويلة عن البلاغة القصصية في الأدب العربي

متعهد بيع مؤلفات محمود تيمور وكذلك «ما تراه العيون» للمرحوم محمد تيمور :

المكتبة السلفية

بشارع الاستئناف . خلف المحافظة . بميدان باب الخلق

وكذلك تُطلب من المكاتب العربية المشهورة . ومن مكتبة C.M.S الانجليزية بالقاهرة واسكندرية

يظهر في نوفمبر القادم سنة ١٩٢٧ كتاب :

رجب افندى

رواية قصصية مصرية تأليف

محمود تيمور

يظهر قريباً في عالم التمثيل والمطبوعات روايتي :

الخطيئة و اليقظة

تأليف محمود تيمور . الاولى كوميدي درام ، مصرية ، أجتماعية ، ذات ثلاثة فصول . والثانية كوميدى ، مصرية أخلاقية ، ذات ثلاثة فصول .

PB-30400-SB
5-20
C

نسخ المخطوطات القديمة والكتابات الأثرية والمستندات المهمة

بالفوتوغراف

في

دار الطبعة السلفية

بالقاهرة

بتصوير سريع ومتقن

بأثمان معتدلة

مذكرات غليوم الثاني

بقلم دوارين

اشترك في نقلها الى اللغة العربية

محب الدين الخطيب — و — أسعد داغر

منشىء مجلة الزهراء — المحرر بجريدة الاهرام

وهو في ٢٥٥ صفحة مترجماً ترجمة بليغة صحيحة . وثمنه ٨ قروش

قميص من نار

رواية وطنية تتضمن تاريخ نهضة الترك بعد الحرب العظمى

للسيدة خالدة أديب وزيرة المعارف في أنقرة سابقاً

وتعريب محب الدين الخطيب

في ٢٠٨ صفحات ثمنها ٥ قروش

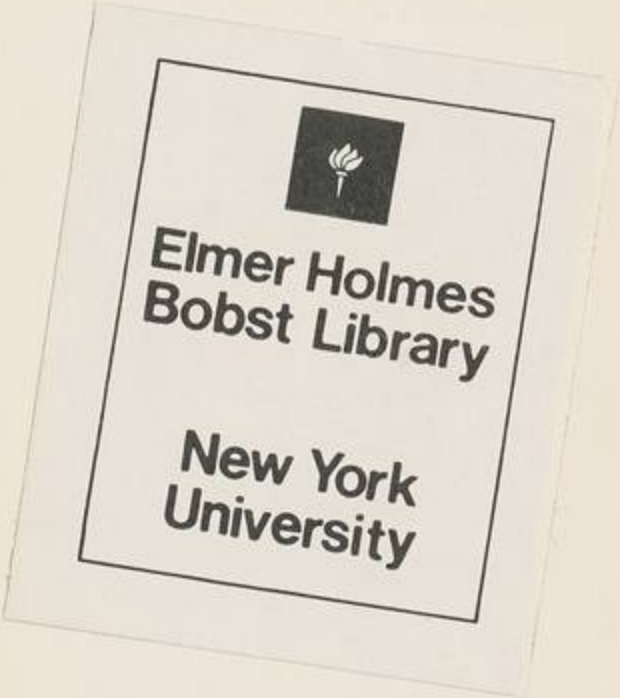
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

Date Due

Demco 38-297

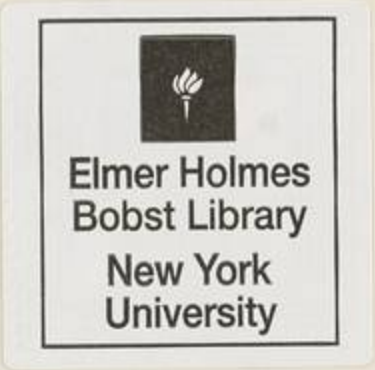
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

PJ
7864
.A52
M3